سلسلة أيام معهم ٣

غريد الشيخ



أيام مع الفيتوري

النخبة
للتأليف والترجمة والنشر

الفيتوري الفيتوري

أيام مع محمَّد الفيتوري

سلسلة أيام معهم: مجموعة قصص تمثيلية تحكي كل واحدة منها عن شاعر بأسلوب حديث. البطلة الرئيسة هي فتاة تستحضر أبطالها، تُحاورهم وتتعاطف معهم وتتعرف على حياتهم من خلال أحداث يروونها وأشعار يقرؤونها.



بيروت ـ لبنان

الطبعة الإلكترونية 2012

ISBN 978-9953-518-31-2

تلفاكس: 009615602752

تلفون: 009613482587

www.dar-alnokhba.com

alnokhba@dar-alnokhba.com

gharid@dar-alnokhba.com

gharid9@hotmail.com

التصميم الفني والغلاف: غريد جحا

إهداء..

إلى الغارق أبدًا

في هموم الوطن وآلامه

السّاعي دائمًا

إلى تحقيق العدل والحرية...

غريد الشيخ

بيروت 2001/ 8/ 1

كلمة أولى

د. محمَّد زكريا عناني

"أيام معهم"،

مع من؟ لقد بدأت التجربة بهذا الشّاعر الغضوب حارق اللسان: جرير، ثم جاء التحول إلى نزار قباني بكل "نسائياته" و"انتفاضاته" واحترقاته التي امتدت ألسنتها إلى أفئدة الناس...

وهذا اللقاء الثالث يمضي على النهج ذاته مع اخلاف جوهري يتمثَّل في أن "محمَّد الفيتوري" لا يزال ـ من حسن الحظ ـ حيّاً بيننا، يشارك في الندوات وتصدر له الدواوين، ويسعى إليه محبو الأدب والفن، ومن بينهم هذه الصبية المشاكسة التي شاء القدر أن تحمل اسم "رغد"، والتي تصطنع هذا الإطار شبه القصصي لتتغلغل من خلاله إلى أعماق الشخصية التي تتناولها، وتجعل من السهل على القارئ أن يستوعب ملامح العصر وسيرة الشّاعر وسمات شعره بما يتلاءم وعصر الأنترنت والسي دي وما سيجدّ من أفانين.

وكأني أريد من هذا إلى القول بأن إطار سلسلة "أيام معهم" يغلب عليه الجانب "التعليمي" بمعنى أنَّها قد لا تتلاءم وأمزجة السادة الأكاديميين (أترى بسبب نضوب أخيلتهم أم لاعتبارات أخرى؟) ولا من يدورون

في فلكهم، ولكنها بالقطع تناسب جيلاً يريد أن تصل إليه المعلومة بأسهل الطرق، ومن ثم فإن في مثل صنيع غريد الشيخ ما يعينه على الأمر، ومع ذلك فعلينا أن نتذكر بأن رواية من أوائل ما كتب من هذا النوع في العصر الحديث: "علم الدين" لعلي مبارك، كانت في الأساس عملاً "تعليمياً" يستعين بإطار الرواية في تقديم مادته.

وفي ظني أن الكاتبة أحسنت في كتابها هذا من عدة وجوه، فقد اختارت شخصية أدبية لها مكانتها في مضمار التجديد الشّعري بحيث لا يصح أن يُؤَرَّخَ للشعر العربي في نصف القرن المنصرم دون الوقوف طويلاً أمام هذا الفتى الأسمر الذي انداحت مع أوائل الخمسينيات قصائده المترعة بالشجن والحلم والغضب والإرادة والتحدي، وقد كان ديوانه الأول "أغاني أفريقية" بمثابة العاصفة التي جعلتنا نلتفت إلى تلك القارة السوداء الرابضة على مقربة، لكن ما كان أحد يراها أو يريد أن يراها، وشاركت الفيتوري أسماء أخرى توالت دواوينها وهدرت إيقاعاتها لكنه ظل الأكثر تأثيراً والأبعد انتشاراً.

ولأنه شاعر أصيل، فإنه مضى في مسيرة الإبداع مبتكراً في الموضوع والروح والأدوات الفنية، على نحو ما قُدِّم في عدد من المؤلَّفات والأطروحات، لكن شعر الفيتوري لا يزال خصباً ودافئاً ومسكراً ومحيِّراً فلا عجب بعد هذا أن تفتتن به بطلة "أيام معهم" وتسعى إلى الغوص في أعماقه وقراءة مجموعة من أحلى قصائده ومحاولة دفعه لأن يقول بأكثر مما قالت كتاباته المنشورة.

وفي اعتقادي أن الكاتبة تتطوَّر بشكل إيجابي ملموس، ولعلها المرة الأولى في سلسلتها الجميلة التي تلتفت فيها لأهمية الوقوف أمام الملامح الفنية بشكل غاية في البساطة والوضوح والفهم كذلك.

وقد سبق لي أن ختمتُ المقدمة التي كتبتُها عن أيامها مع نزار قباني بأن في عملها "سهولة الوردة التي تطل على الكون هكذا: تلقائية ويانعة وبدون ادِّعاء، لكي يتسللَ عبقُها إلى الروح ويسكن في صميم القلب". وهذا ما يتجلَّى هنا، في هذه الأيام مع محمَّد الفيتوري، بمزيد من الاقتدار والوعي والحماس والحب، لتؤكد على أن "الكلمة" بحق تتلاقى والوردة في جمالها ونضارتها وقوة تأثيرها ورشاقة تعبيرها.

محمد زكريا عناني

بيروت ـ الحمراء 2001/ 8/ 7م

لقاء

يرنّ جرس الهاتف بإصرار عند الساعة الثانية عشرة ليلاً... ترفع رغد السمَّاعة بكسل، يأتيها صوته:

ـ أميرتي الحسناء، صباح الخير.

تضحك سعيدة باللَّقب، تجيبه:

ـ مشتاقةٌ إليك.

ـ نائمة طبعًا.

ـ خرجتُ الآن من بداية أحلامي إلى الحلم الأجمل.

ـ لا تضيعي عمرك بالنّوم يا عزيزتي، ألم تسمعي السّتّ عندما تغنّي:

فما أطالَ النّوم عمرًا

ولا قصَّرَ في الأعمار طول السّهر

ـ في النّوم أيضاً عمرٌ آخر، أو حتى أعمار، خصوصاً عندما نحلم بمن نحبّ، ونسعد بلقاءِ ربّما لم يتسنَّ له أن يكون حقيقةً.

ـ ولماذا الأحلام ما دمنا نستطيع أن نحقِّق اللّقاء في كلّ وقت.

ـ أشتاقُ أن أعرفك.

ـ سآتي إلى بيروت بعد أيّام.

ـ حقًّا.. إلى بيروت، هل تأتي دائمًا إلى بيروت، لو جئتَ إلى بيروت سأفعل أشياء كثيرة..

يقول ضاحكًا:

ـ مثل ماذا؟..

ـ أنتظركْ.

ـ أين؟..

ـ على شاطئ البحر، مقابل الرّوشة..

ـ كيف سأعرفك؟ ماذا ستلبسين؟.

ـ أزرق طبعًا، بلون البحر.

ـ سأعرفك دن أن تخبريني ماذا تلبسين أو ما هي أوصافك.

ـ كم أنا سعيدة لقدومك..

ـ بل إنّ سعادتي أكبر، فأنا أحبُّه:

"ويسألونكَ عن لبنان، يسألُكَ الـ

ـفجرُ السّماويُّ والأصدافُ والدُّرَرُ

وجوقةٌ من ملوك الشّعر ترسمُ في

بلّور بيروت رؤياها وتبتكرُ

فوضويّون مِن أقصى الزَّمان إلى

أقصى الزّمان فلا ناموا ولا سهروا

وعاشقون إذا طاف الجمال بهم

تناسخوا فيه مبهورين وانسحروا

وحالمون كأنْ لم يولدوا أبدًا

ولم يمرّ بهم رعدٌ ولا مطرُ

فآمنوا بالجمال المحضِ، وانفجرت

أشلاؤهم في رماد الكون وانفجروا

لبنان والشّعر موسيقى الإله، وبعـ

ـض الشّعر مِن كرمةٍ في الغيب يعتصر"

ـ لبنان أيضًا يحبّك، ويحبّ شعرك.

ـ حسناً أيتها الأميرة.. عودي إلى أحلامك الجميلة واحلمي بي.. قبلاتي على جبينك الناصع.

ـ نحن بانتظارك.

* * *

تحرَّكت رغد في سريرها، فتحت عينيها.. هل جرس الهاتف رنّ حقًّا؟.. لم يرنّ؟...

نظرت إلى كتب الفيتوري على الطّاولة والسّرير، أغمضت عينيها... جاءها صوته من جديد:

"غفوتُ.. لم أغفُ: مثل النّهر سابحة
أسماكه.. وهو في استغراقه ثَمِلُ"

وعادت صورته من جديد... شاعرها الحبيب.. محمَّد الفيتوري، صاحب الأغاني الأفريقية التي كشفت الحقيقة السّوداء، فأصبحت القضية الأفريقيّة هي قضيّته، ومن خلال الكلمة الحرّة استطاع أن يصف الحقيقة المقلقة ويوصلها إلى أسماع العالم.

كثيرة هي قصائده التي حفظتها في المدرسة وتعاطفت معها كما جميع أبناء جيلها، فعرفت أفريقيا من خلال هذا الشّعر. وارتبطت صورة شاعرها بصورة شاعر آخَر قرأت عنه وأحبّته وأُعجبتْ بفروسيّته وشجاعته، إنّه عنترة بن شدّاد، وكم كانت فرحتها كبيرة عندما أخبرها الفيتوري أنّ قراءته لسيرة عنترة وشعره كانت أول ما فتح عينيه على الشّعر، عنترة الذي استطاع أن يأخذ حريّته بشجاعته ويستردّ نسبه ويصبح شاعر القبيلة وفارسها الأول.

وهكذا حلم الطّفل الصّغير ـ الفيتوري ـ بدور كبير في الحياة ووجد قضيّته في لون بشرته وفي نظراته إلى جدّته الزنجيّة زهرة، التي رأى في مأساة استعبادها كلّ ملامح فصول المأساة الأفريقية الدّراميّة، لقد اختصرت في ذاتها وأساطيرها ـ كما روتها للشّاعر ـ عبق الغاب الإفريقيّ وما جرى لإفريقيا سالف الأيام.

ردَّد الفيتوري مرارًا: "اسألوا تلك السّيّدة العجوز الزّنجيّة، ذات الثّمانين عامًا، غارسة الإحساس التّراجيديّ في وجداني طفلاً بفضل ما أودعتني إيّاه من أساطير ورؤى ونماذج بشريّة وقى غيبيّة تستعصي على الفهم والتفسير والإدراك.

بل اسألوها، فهي وحدها التي كتبت فصول مأساتها الشخصية من خلال أشعاري، وهي التي تكلّمت ذات يوم عب صوتي المتهدّج وإيقاعاتي الجريحة وتصوّراتي الغريبة المفعمة بواقع دراماتيكي وفجائع إنسانية لم أعشْها من قبل أو من بعد".

صورة الشّاعر المتمرِّد الثائر في خيال رغد هي صورة الفارس الأسمر، حامل السيف، سيف الكلمة.

على شاطئ البحر، وقبالة صخرة الرّوشة، رغد تتمشّى وهي تراقب الطّريق.. لعلّه سيأتي من هنا.. من بعيد ترى شاباً سودانيّاً وسيماً، تنظر إليه ثم تهزّ رأستها، تقول لنفسها:

ـ لا.. لا بدّ أن الفيتوري أكبر من هذا الشّابّ، إنّه رجلٌ بكل معنى الكلمة، ناضج.. وكبير.. كبير..

تتذكّر لطاغور:

"لأنّنا سنلتقي، أنت وأنا

تمتلئُ السّماءُ بالضّياء

لأنّنا سنلتقي، أنت وأنا

تبتهج الرّوابي الخضراء

لأنّنا سنلتقي، أنت وأنا

تسهرُ اللّيلةُ، وهي تحتضن العالم

ويطلّ الفجرُ ليفتحَ الباب على مشرق السّماء

مليئاً بألحان شدو الطّيور"

أحسَّت فجأة بيدٍ على كتفها، أدارت وجهها إليه، فاجأها شكله. لم تجد فارسها الطّويل القامة، العريض المنكبين كما تخيّلته دائماً.. وإنّما وجدت رجلاً آخر.

أسمر، نعم، ولكنّه ليس عنترة.. لا يشبهه..

الفيتوري:

ـ أنت رغد طبعًا؟..

رغد مبتسمةً:

ـ أهلاً بك في بلدك لبنان.

أشارت إلى المقهى القريب، قالت له:

ـ هل نجلس في ذلك المكان، إنَّه هادئ وجميل.

ـ لا يهمّ المكان، المهمّ أن نكون معًا.

جلسا في المقهى البحريّ لساعات، كلّمها عن نفسه، وسألها عن حياتها وعملها..

كلّ هذا مرّ، ورغد لا تستطيع أن تتخلَّص من شعورها بالرهبة، بل أضيف لديها شعور آخر تجاه هذا الرّجل.. كم هو بسيط في تصرّفاته، وودود. قالت لنفسها: حسنًا، إذا كانت صورته تختلف عن صورة الفارس في خيالي، فإنّ هذا الرّجل أمامي يبدو أكبر بكثير مما يقال عنه، إنّه أكبر حتّى من عنترة.

لاحظ الفيتوري أن نظراتها قد علقت لحظة على وجهه، ثمّ لاحظ طيف ابتسامة على شفتيها فقال بذكاء مُعَلِّقًا:

ـ لعلَّكِ يا عزيزتي لم تقرئي ما كتبتُ عن نفسي في بداياتي الشّعرية؟

ـ قرأت أشعارك كلها، ولكنني لا أعرف إلى أيّة قصيدة تشير.

أخرج ديوان شعر وبدأ يقرأ:

"فقيرُ أجلْ.. ودميمٌ دميم

بلونِ الشّتاء، بلون الغيوم

يسيرُ فتسخَرُ منه الوجوه

فيحمل آلامه في جمود

ويحضنُ أحزانه في وجوم

ولكنَّه أبداً حالمٌ

وفي قلبه يقظات النّجوم

فقيرٌ.. فوجهٌ كأنّي به

دخانٌ تكثّفَ ثم التحمْ

وعينان فيه كأرجوحتين

مثقّلتين بريح الألم

وأنف تحدّر ثمّ ارتمى

فبانَ كمقبرةٍ لم تتمّ

ومن تحتها شفةٌ ضخمةٌ

بدائيةٌ قلّما تبتسمْ

وقامته لصقت بالتراب

إن هَزِئتْ روحُه بالقمْ"

قالت معترضةً:

ـ ولكنّك لستَ كما تصف نفسَك، هل سواد البشرة هو الذي خلق لديك عقدة النّقص هذه؟!.

ـ ربّما، لكنَّ ردَّ الفعل الذي ولَّده هذا الشعور بالمهانة هو إحساسي بالكبرياء الذي دفعني فيما بعد إلى التّميّز وفرض الذات.

ـ لا أظنّ أن بشرتكَ السوداء كانت العقبة الحقيقية، بل ما كان يكمن في داخلك من عقبات!

قال ونظراته تبتعد وكأنّه يرى منظرًا بعيدًا:

ـ لَشَدَّ ما كان ذلك الولد المسكين بائسًا ومكتئبًا وضائعًا بعدما اختلطت عليه حقيقة سلالته ومولده ونشأته ما بين تلك المدينة السّودانيّة الإفريقيّة الهاجعة في أحضان النّسيان عند أقصى الغرب السّودانيّ، والتي لم يكن رآها قطّ إلا في أحلام طفولته، وأعني بها مدينة الجنينة، وبين تلك المدينة الحضاريّة الباذخة المتّكئة في اعتداد وزهو فوق سواحل البحر الأبيض المتوسط، مدينة الإسكندرية.

ـ ولكنّ رحلة الضّياع والغربة واللا مكان سرعان ما انتهت إذ اتَّخذت

لرحلتكَ اتجاهًا جديدًا.

ـ نعم.. كانت إفريقيا هي الطّريق والهدف، إفريقيا التي رسمتها جدّتي في وجداني دون أن تدري وجعلتني أعيشُ المعاناة الحقيقية في تلك القارّة السّوداء.

لقد سمعتُ دقّات طقوسها وإيقاعاتها، كما امتلأت رئتاي بروائح بخورها وأسرارها العجائبيّة.

ـ أصبحت إفريقيا إذن رمزك الأكبر لخلاصك الدّاخليّ ووسيلتك للارتباط شيئًا فشيئًا بالواقع الموضوعي الكبير، عودة الثّقة بالنّفس والإنسان والحياة!!

ـ في البداية كانت إفريقيا هي معركتي وهدفي، ثمّ لم تعد وحدها، لم تعد المعركة معركة لونيّة بين أبيض وأسود بل أصبحت معركة قِيَم إنسانيّة عامَّة، معركة استعمار الشّعب، بين طغاة وأحرار ثائرين..

ـ أظنّ أنّ اعترافك بخلقتكَ التي وصفتَها بالبشاعة قد تمَّ بعد أن تأكّدتَ من كنز الجمال المخبوء في روحك.

الفيتوري ضاحكًا:

ـ هل أعتبر هذا تغزّلاً بي؟.

ـ أنتَ لطيف جدًّا ورائع، رغم أنّك لا تشبهه!!.

قال متسائلا:

ـ لا أُشبهُ مَنْ؟!

ـ لا تشبه عنترة.

ضحك طويلاً ثم قال:

ـ ليس من الضّروريّ أن يشبه كلّ شاعر أسود عنترة.

صمت قليلاً ثمّ تابع:

ـ تعلمين.. إنّ عثوري على عنترة بحياته التّراجيديّة الشّديدة القسوة والتّنوّع كان عثورًا على نفسي، اللّون نفسه والعقدة ذاتها.

ـ تأثرتَ به كثيرًا؟.

ـ في مكتبة أبي عثرتُ على سيرة عنترة.. التهمتُها بكلّ ما في روحي من تشوّق ظامئ إلى الحياة، ومنها عرفتُ أن عنترة أسود البشرة، أسود مثلي، وأنّه عشق أجمل صبايا قبيلة عبس، عبلة، وقد استطاع عنترة، الابن غير الشّرعيّ لشدّاد، أن يفرضَ ذاته وأن يؤكّد وجوده، وهو الشّخص الضّائع النّسب ما بين الحريّة والاسترقاق في مجتمع الجاهلية المتعصِّب الذي لا سيادةَ فيه إلا للأقوى والأشرف والأغنى.

ـ ولكنّ قراءاتك لم تتوقّف عند عنترة.

ـ نعم.. لقد قرأت سيرة أبي زيد الهلالي والزّناتي خليفة، ودياب والأميرة الناعسة، وشاركتُ بخيالي في المعارك التي خاضوها.. وهكذا تعدَّدت مصادر إشباع احتياجاتي الروحية والعاطفية.. وبعد ذلك انتقلتُ لقراءة شارلوك هولمز وطرزان وأرسين لوبين وروايات أخرى مترجمة عن لغاتها الأصلية.

مُغَنّي إفريقيا الحزين

سافر الفيتوري، واتَّفقا أن يلتقيا في القاهرة لأنّ لرغد رحلة مقرَّرة إلى هناك لإحضار بعض المراجع لدراستها.. في القاهرة كانت اللّقاءات بينهما يوميّة تقريبًا. اتَّصل بها يومًا وطلب إليها أن تستعدَّ لمرافقته على العشاء.

ـ البسي ثياب الرّياضة، لأنّنا سنتعشَّى في أحد المطاعم النّيليّة ثمّ نتمشَّى على الكورنيش.. لا بدّ أن تري القاهرة ليلاً..

ـ إنني بانتظارك في السّاعة السّابعة.. إلى اللّقاء.

ليل القاهرة ينعش النّفس والعقل معًا.

قالت بسعادة وهي تسبح بنظراتها في النّيل:

ـ إنّ حلم كلّ إنسان أن يأتي إلى مصر، إنّها رائعة، كلّ ما فيها، نيلها، آثارها، حتى ناسُها.

ـ إنّكِ ترينها الآن هكذا، ماذا لو عرفتها في الخمسينات.. إنّها البلد التي حضنت كل أنواع الفنون من أدب وشعر وغيرها.

لقد كان مِن حظّي أن مصر، وليست غير مصر، هي التي أرخت جناحيها فوقي واحتضنتني وتبنَّت أفكاري الجريئة، وأضافت إلى صوتي الضعيف عظمة تراثها الحضاري وأهمية موقعها التاريخي وثقل ميراثها العظيم.

ـ لقد انطلقتَ من كلية دار العلوم.

تلمع عيناه بشدَّة وتذهبان بعيدًا وكأنه يتذكَّر تلك الأيام:

ـ في منتصف الخمسينات كانت كلية دار العلوم بيئة ثقافية متكاملة، وكانت تستقطب كافة المثقّفين ويلتقي في ندواتها الأدبية ومهرجاناتها الشّعرية كلّ أدباء مصر ومفكّريها.

لقد وجدتُ في هذه البيئة الكثير من الرعاية، وحَظِيَ شعري بإعجاب أساتذتي وزملائي.

ـ وهذا دفعكَ لإصدار ديوانك الأول "أغاني أفريقيا عام 1955"، وأنت ما تزال طالبًا في السنة الثانية؟.

يبتسم ويجيب:

ـ نعم وقد أقامت لي الكلية يومها حفلاً تكريميًّا عظيمًا.

رغد بإعجاب:

ـ ومنذ ذلك الوقت أصبحتَ ضيفًا أثيرًا على المنتديات الشّعرية في القاهرة.

ـ نعم.. فقد كان الديوان صرخة ذات إيقاع متميّز دوّت عاليًا في فضاء الساحة الأدبيّة، وقد تناوله كبار النقَّاد في مصر بالتعليق والتحليل والإعجاب.

ـ "أغاني أفريقيا" جعلت اسمكَ يقفز بسرعة ليقف بجدارة بجانب

اسم نازك الملائكة والسياب وعبد الصبور والبيّاتي.

ـ كانت قصائد الديوان تدور حول القارّة السّوداء وعذاباتها ومعاناتها وحثّها على النّهضة، بل ودعوتها إلى الثورة على أوضاعها المتردّية والوقوف بكرامة في وجه المستبد الأبيض الذي استعبد إنسانها وعبث بتاريخها وخنق حرّيتها واستغلّ ثرواتها.

ـ نعم، القضيّة كانت باهتة في ذهن العالم الخارجي، ولكنك ظللتَ تدقّ طبول الوعي القومي وتستنهض الهمم وتشجب السّلبيات.

الفيتوري بسعادة:

ـ ها هي إفريقيا اليوم متيقّظة لذاتِها بعد أن نفضت عن كاهلها كابوس الاستعمار وقويت لدى شعوبها روح الكرامة ورفرفت عليها رايات الاستقلال.

ـ أنت قارئ شعريّ للمأساة الأفريقية، ولكنّ صوتك هو صوت عربيّ بإيقاعات أفريقية.

الفيتوري يُخرج ديوان "أغاني أفريقيا"، يقول:

ـ سأقرأ لك قصيدة "إلى وجه أبيض"، أظنّ أنه أول نصوصي الشّعرية ملامسةً للجرح الأفريقي:

"أَلأَنّ وجهي أسودٌ

ولأنّ وجهك أبيض

سمّيتني عبدا

ووطئتَ إنسانيتي

وحقرتَ روحانيتي

فصنعتَ لي قيدا

وشربتَ كَرْمي ظالمًا

وأكلتَ بقلي ناقما

وتركتَ لي الحقدا

ولبستَ ما نسجَتْ خيوطُ مغازلي

وكسوتني التَّنهيدَ والكدّا

وسكنتَ جنّات الفراديس

التي بيدي نَحَتُّ صخورها الصّلدا

وأنا.. كم استلقيتُ في كوخ الدُّجى

أتلفّحُ الظّلماتِ والبردا

كالشّاة.. أجترُّ الكآبةَ

عاقداً حولي دخان تفاهتي عقدا

حتّى إذا انطفأت مصابيحُ السّما

وانسابَ نهرُ الفجرِ ممتدّا

أيقظتُ ماشيتي الهزيلة

وانطلقتُ أقودُها لمراحها قودا

فإذا سَمُنَّ نعمتَ أنتَ بلحمِها

ونبذتَ لي الأمعاءَ والجلدا

لا يا أخي...!

إنّ التهابَ مشاعري هيهات بعد اليوم أن يهدا

هيهات..

لم أخلقْ عليها بومة

تقتاتُ بالديجان أو قردا

أنا كائنٌ أمّي وأمّك طينةٌ

والنورُ ليس لأيّنا جَدّا

فإلامَ تحرمُني حقوقي؟

بينما تلقى السعادة أنت والرّغدا

وإلامَ تستعلي بأنفِكَ سيّدا؟

وأنا أُطأطىءُ هامتي عبدا.

إنّي صحوتُ..

صحوتُ من أمسي

وذي فأسي تهدُّ قبوره هدّا

سأكون ناراً.. فالحياةُ تريدني نارا

وأرقصُ فوقها رعدا..

فاخلعْ براقعَ كبريائَكَ..

إنّني أسكنتُ جيفة ذلّتي لَحْدا

واضْمُمْ يديك إلى يَدَيَّ..

نشِدْ معاً صرحَ المحبّة بيننا شيدا..

إنّي أخوك فلا تعقّ أخوّتي..

فتزيد بركانيّتي وقدا..

إيّاكَ.. لا تبذرْ بذورَ عداوتي

فتعود تحصدُ شوكَها حصدا

إيّاكَ.. لا تزرعْ حقولكَ عوسجًا

إنّي زرعتُ حقوليَ.. الوردا"

رغد:

ـ رائع.. إنّ النصّ يتناول أزمة العلاقة بين الوجهين الأبيض والأسود،

وقد استحضرتَ فيه الحجج المقنعة لجعل جواب الرّجل الأبيض خطأً فادحًا لا تسنده موضوعيّة تسوّغ الفعل الممارَس على الإنسان الأسود.

ـ نعم.. وفي النصّ تأكيد على الصّمود والوعي التامّين اللّذين يفيدان أن عودةَ إلى حياة الماضي، مع التّلويح بشدّة الغضب.

"سأكون نارًا.. فالحياةُ تريدني نارا".

ـ ومع ذلك فأنت تقدّم عرض الأخوّة الذي يعني القبول بمبدأ المساواة والنّدِّيّة بين الاثنين.

ـ في القصيدة تأكيد على صدق الرغبة في حصول التآخي مع شعور ضمني بعدم قبول الطرف الآخر. ثم في حال عدم القبول هناك البديل حيث أقول:

"إيّاك لا تبذرْ بذور عدواتي

فتعود تحصد شوكها حصدا"

ـ يوم صدور ديوانك الأول انطلقت أصوات كثيرة مؤيّدة أو معارضة، ومن بين أصوات النقّاد كان صوت الناقد الكبير محمود أمين العالم الذي

اتّهمك بأنّك تمزِّق القضية، وتمزّق الطبقة، وتمزّق الكتلة الجاهيرية الواحدة بدعواك أن هناك قضية منفصلة للسّود. وقد قال: "إن العامل الأسود والعامل الأبيض يرزحان تحت نير تاريخي واجتماعي واحد هو نير الرأسماليّ الأبيض والرأسماليّ الأسود، نير الاستعمار والاستغلال، فالقضيّة إذن ليست قضية أسود وأبيض، إنّها قضية مستغِلّ ومُستَغَلّ، قضية الكادحين وأصحاب رؤوس الأموال".

ـ تلك كانت وجهة نظره، استنادًا إلى نظريّته العلميّة الماركسيّة، أمّا بالنّسبة لي، فلقد أردت بالفعل أن أفضح واقعنا اللا إنسانيّ الأسود، ولن أسمح بالمساهمة في تزييف هذا الواقع القبيح. ولكنني لم أتوقّف عند القضية الإفريقية، فالحرية كانت الهدف الأول والأسمى لمضمون نتاجاتي الشّعرية. وقد أكّدتُ فيما بعد وبأكثر قصائدي أن العربيّ والأسود يوحِّد نضالهما باعث واحد هو مواجهة المجابهة اللامتساوية مع المستعمر، فهما يوجدان في حالة اضطهاد من لدن نفس المضطهد.

ـ إنك شاعر ذو لسان عربيّ، ومن ثمّ فإنّ صرخاتُكَ لن تصل إلى الجماهير الإفريقية التي ما زالت تبحث عن صوت ذي طابع محلّي، فالتواصل إذن مُغَيَّب؟.

ـ نعم.. ولكن هذا لا يمنع أن أضمّ مجهوداتي لأُخرى تمّت على يد سنغور وسيزير وديوب، فهناك مستقبل واحد، لأن القضية واحدة والوسائل وحدها التي تختلف.

أفريقيا.. لقد أتى دورنا

في مكتبه يقدّم الفيتوري الكتب لرغد ويقول لها مبتسماً:

ـ حسناً أنا مستعدّ للإجابة عن كل أسئلتكِ.

تقول:

ـ ليست أسئلة، بل مجرد حديث يضيء لي الطّريق لفهم شِعرك.

ـ يبدو أن الموضوع الإفريقيّ ما زال يشغلك؟

ـ نعم وسيشغلني دائماً..

ـ منذ ديوانك الأول أدنتَ وبشدّة استعباد الإنسان الأبيض لأخيه الإنسان الأسود.

ـ وأدنتُ الاستعباد في شتّى صوره، لقد حملت في مراحل حياتي كلها على الطُّغاة والمُستبدين الذين كبّلوا شعوبهم بالعسف وقتلوا فيها كلّ تطلّع إلى الحرية، كما داسوا على أي اتجاه نحو الإحساس بالكرامة الإنسانية.

رغد تقلب ديوان "أغاني أفريقيا" ثم تفتح على قصيدة "البعث الأفريقي" تقول:

ـ إن تصويرك للوضع الأفريقي تصوير حادّ حيث أصبحت القارة مُصْفَرَّة الأشواق معتوهة، جوعانة تمضي أيامها كحارس المقبرة المقعد...

ـ ربّما كان لجوئي إلى السّخريات اللاذعة لإحداث أكبر قدر مُمكن من الاهتزاز في الجسد الإفريقيّ النائم بغية استعجال نهوضه.

رغد تطلب إليه أن يقرأ القصيدة.

الفيتوري:

"أفريقيا..

أفريقيا استيقظي..

استيقظي من حلمك الأسودِ

قد طالما نمت.. ألم تسأمي؟".

رغد:

ـ النداء هنا طبعًا للإنسان المُقيم على الأرض الأفريقية المناداة، وقد بدأت القصيدة بزرع بذور الوعي في الرّوح النّائم شبه الميت، فالنوم على مثل هذه الحالة لا ينتج إلا الكوابيس والأحلام السوداء...

الفيتوري:

"ألم تملّي قدم السيّدِ؟

قد طالما استلقيت تحت الدُّجى

مجهدة.. في كوخكِ المجهدِ

مُصْفَرَّة الأشواقِ..

معتوهة..

تبني بكفّيها ظلام الغدِ..

جوعانة تمضغ أيامَها

كحارس المقبرة المُقْعَدِ..

عريانة الماضي..

بلا عزّة تتوّج الآتي..

ولا سؤددِ!..

أفريقيا..

أفريقيا استيقظي

استيقظي من ذاتك المظلمهْ

كم دارت الأرض حواليك..

كم دارت شموسُ الفلك المُضرمه

وشيَّد الناقم ما هدّمهْ..

وحقَّر العابد ما عظّمهْ..

وأنتِ لا زلتِ كما أنت

كالجمجمةِ الملقاة..

كالجمجمهْ..

واعجبا ألم تفجّرْ شرايينك سخرياتهم

يا أَمَهْ!!"

الفيتوري:

ـ هنا أحاول لفت الانتباه إلى الخارج لخلق مقارنة بين الوضعين..

ـ تفعلُ هذا بسخط وغضب كبيرين، فتصوّر أفريقيا أنها رغم دوران الزّمن قد ظلت نائية عن كل التغيّرات ساكنة بلا قيمة كالجمجمة الملقاة، ثم تنعتها بأنّها أَمَة.. وضائعة.

الفيتوري يتابع:

"أفريقيا..

أفريقيا استيقظي..

استيقظي من نفسك القابعهْ

أكلّ ما عندك أن تصبحي مزرعهْ

للأرجُلِ الزّارعه

أكلّ ما عندك أن تلعقي أحذية المستعمر اللامعهْ

أكلّ ما عندك أن ترقدي

خاملة.. خائرة.. خاضعه

أكلّ ما عندك أن تضحكي

هازئة بالقَيَم الرائعهْ..

أكلّ ما عندك أن تُصدري قوافل الرقيق..

يا ضائعهْ!!

أفريقيا..

أفريقيا النائية

يا وطني.. يا أرض أجداديه

إني أناديكِ..

ألم تسمعي صراخ آلامي وأحقاديَهْ!

إني أناديك..

أنادي دمي فيك..

أنادي أمّتي العاريه..

إني أنادي الأوجه الباليه

والأعين الراكدة..

الكابيهْ..

فويك إن لم تحضني صرختي

زاحفة من ظلمة الهاويه

عاصفة بالأبيض المعتدي عليك..

يا أفريقيا الغالية..".

ـ النداء أشبه بغضب طفل على أمّه المهملة لمسؤولياتها، اللا مبالية!!

الفيتوري:

"لتنتفضْ جثّةَ تاريخنا

ولينتصبْ تمثالَ أحقادنا

آن لهذا الأسود.. المُنزوي

المتواري عن عيون السّنا

آنَ له أني يتحدّى الورى..

آنَ له أن يتحدّى الفنى

فلتنحنِ الشمسُ لهاماتِنا..

ولتخشعِ الأرضُ لأصواتِنا..

إنا سنكسوها بأفراحنا..

كما كسوناها بأحزاننا

أجل.. فإنا قد أتى دورنا

أفريقيا..

إنا أتى دورنا".

ـ نهاية القصيدة فيها الكثير من الأمل بالمستقبل وقدرة الشعب على لعب دور مهمٍّ في تغيير مصيره إذا توفرت فيه العزيمة والإصرار...

ـ عندما كتبتُ القصيدة كنت فعلاً أتوجه إلى الأرض الإفريقيّة المستعبدة ولكن القصيدة اليوم تعبّر عن مأساة كلّ الشعوب وهي دعوة صادقة إلى الثورة على الظلم والاستعباد والاستعمار أيًّا كان شكله.

ـ لذلك فقد مجّدت في قصائد كثيرة بطولة الثائرين على هذا الظّلام الجاثم وأشدت بمبادرات الأحرار الذين رفضوا الانصياع داخل أسوار السجن الكبير..

ـ نعم هناك الكثير من قصائدي التي أرّخت تلك البطولات مثل "رسالة إلى جميلة، ومقتل السلطان تاج الدين، وإلى عبد الخالق محجوب، وإلى روح الشهيد بابكر كرّار".

ـ جميلة بوحيرد، لقد ارتبط اسمها باسم وطنها الجزائر، الجزائر بلد المليون شهيد، إنها كما تقول عنها النار الجزائرية المشتعلة في وجه المستعمر التي تسقي بآلامها في المعتقلات أشعة الشمس الجزائرية اللاهبة..

ـ هي رسالة إكبار لنضال هذه البطلة في سبيل بلادها.. إنني أطلب منها أن تهبنا قوة الثورة الشعبية العاصفة، قوة شعب الجزائر الثائر..

"ما أجملَ الحياة يا جميلهْ

لولا جنون الطُّغاه

وقهقهات السّجون

لأنّ ظالمًا يحبُّ الحياه

ويكره الآخرين

لأن سيّدًا يحبُّ العبيد

ويكره الثّائرين

لأنّ سجّانَكِ يا جميله

أيتها النارُ الجزائريهْ

كلّ جنود الإمبراطوريه..

لا تطرقي رأسك يا جميله

لا تخفضي جبهتك النّبيله

قفي بوجه العذاب

شامخةً بالعذاب

لا تدعي نقمتهم تقتلك

لا تدعي رحمتهم تغسلك

إنك قبر الإمبراطوريه

إنك تسقين بآلامك

أشعة الشمس الجزائريهْ

إنك تمشين بأقدامك

فوق جلال الإمبراطوريَّه

فوق عروش قَتَلَه

ما زال في أعينهم جوعُ الملوك

ما زال في دمائِهم صراخُ القَتَلَه

ما زال فيهم رعشةُ القراصنه

تمتدّ مليون سنه

ما زال صوت تجّار الرقيق

ما زال صوت المقصلهْ

يبعث فيهم الحنين والوله"

يصمت ويبعد وجهه بينما تلوح في عينيه آثار دموع ثم يتابع بعد أن يمسحها:

"أأضربُ الأمثالَ يا جميله

أأملأُ العروقَ بالثارات

أأملأُ الوجوه بالوجوم!

أأملأُ السّماء بالغيوم!

إذن هبيني ساعةً من حياه

حياة روح داخل السّجن

حياتك الساعة يا جميله

في ليل زنزانتك الطويله

حين تدور ساعة الحزن

ثلاث دورات فجائيه

وحين لا ينفذ للأذن

إِلَّا خطى الجند الحديديهْ

وهي تجوب ساحة السّجن

في رعشة شبه جنونيّه

إذن.. هبيني قوّةَ الوجود

قوة إنسانيّة البشر

قوة ألف ثائر في القيود

يفجّرون طاقةَ القدر

قوة شعبكِ العظيم

غضبان فرحان ثائر

قوة روحك المشعّ كالنّجوم

فوق سماء الجزائر"

رغد:

ـ لعلّ الجزائر الحبيبة تستطيع اليوم أن تتخطّى ما تمرّ به من آلام وأن يستطيع شعبها أن يتغلّب على المؤامرات التي تُحاكُ ضدّه.

الفيتوري.. والشّعر والالتزام

رغد تقلّب صفحات الدّيوان الأول "أغاني أفريقيا"، تقول:

ـ لفظة الملتزم تُطْلَقُ اليوم على المُثَقّف سواء كان كاتبًا أو مفكّرًا أو فنّانًا، وفي فكرة الالتزام دحض لنظرية "الفن للفن"، "والأدب المَجّانيّ" و"الفكر اللا مبالي". وفي كلّ هذا نستطيع أن نلمح ومنذ بداياتك الشّعرية انطباق هذه المواصفات عليك، والقول بأن الشّاعر محمد الفيتوري هو شاعر ملتزم..

ـ إن الالتزام يقوم في الدرجة الأولى على الموقف الذي يتّخذه المفكّر أو الأديب أو الفنان، وهذا الموقف يقتضي صراحةً ووضوحًا وإخلاصًا وصدقًا.

ـ ويتطلّب أيضًا من المفكّر استعدادًا لأن يحافظ على التزامه دائمًا، ويتحمّل كامل التّبعة التي تترتّب على هذا الالتزام.

ـ ما دام التزام المفكّر أو الأديب صادرًا من قلبهن وما دام قد التزمعن وعي واقتناع واختيار حرّ دونما تكلّف أو إكراه فهذا سيجعله مسؤولاً عن التزامه ومدافعًا عنه دائمًا.

رغد:

ـ من طبيعة العمل المسؤول أن يكون هادفًا إلى غاية محدّدة، فما هو هدف

الالتزام الفكريّ؟

ـ الالتزام الفكري هدفه الكشف عن الواقع الراهن والسعي إلى تغييره، أو بالأحرى السّعي إلى تغيير ما ليس سليماً فيه.

رغد:

ـ والوسيلة التي يستخدمها المفكّر لتحقيق غايته هي الكلمة كما يقول (بريس باران): "الكلمات مسدسات عامرة بقذائفها".

يهزّ رأسه ويقول:

ـ ومن هنا ارتفعت أصوات المفكّرين والأدباء والنقّاد منادية بإحكام الصّلة بين الأدب والحياة، وجعل الأدب يصدر عن الواقع الحيّ فيفسّره وينقده ويصوّره ويكشف ما فيه من حقائق.

ـ كأنّما أردتَ في مستهلّ قصيدة "عاشق من أفريقيا" أن تؤكّد إيمانك بالالتزام وبضرورة تهديف الشّعر ليكون له دور في معالجة القضايا الإنسانيّة الكبرى ذات الطّابع السّياسيّ والاجتماعيّ والحضاري بوجه عام.

يقول بعد تفكير قصير:

ـ أحسستُ دائماً بقدسيّة الكلمة وسمّوها، ومنذ حملت القلم شعرت بأنّني أحمل سيفًا سيمكنني يومًا من خوض أكبر المعارك في سبيل الحقّ والحرّيّة...

ـ ثروةٌ عظيمة، ثروة الشّعر.

ـ لقد وقفت شعري كلّه لهوّى قديم وُلِدَ معي ورافقني منذ طفولتي وهو حبي لأفريقيا التي منحتها كلّ ما أملك من شغف وفكر وتمرّد، فأصبحت همي وسعادتي، أصبحت فرحي وشقائي وأملي في الحياة.

رغد تقرأ:

"صناعتي الكلامْ

سيفي قلمي

وكلُّ ثروتي شعورٌ ونَغَمْ

ولستُ واحداً من أنبياءِ العصرْ

لستُ من فرسانِه الذين يحملون راياتِ النضال

أو يخطّون مصائرَ الأُمَمْ

لكنَّ لي هوًى يَكبُرُ كلّما أكْبُرْ

لم أمنحْهُ مرّةً لملكٍ مُتَوَّجْ

ولم أُمَرِّغْ وجنتيه فوقَ أعتابِ صنمْ

صناعتي الكلامْ

قد أُجيدُ تارة... وقد أخطئُ في دمي

ومنذ أزهرتْ براعمُ الكلام في فمي

ومنذ ما انطلقتُ ضائعاً مُشَرَّدا

أطوي ليالي غربتي

وأمتطي خيولَ سِأَمي

كنتِ عذابي أنتِ يا أفريقيا

وكنتِ غربتي التي أعيشُها

وشئتُ أن أعيشَها".

رغد:

ـ إذا كانت مأساة إفريقيا هي قدرك فأنت لا تتململ من هذا القدر ولا تتبرم بهن وإنّما وبملء إرادتك حملت صليب القارة السّوداء على كتفيك وارتضيت أن تكونَ حبّك الكبير، وتجعل قصائدك وقفًا على هواها..

الفيتوري:

"وحينما غنّيت.. غنّيتُ لعينيكِ

ومسّتْ شفتي في وَلَهٍ رموشَها

حينئذٍ رأيتُ فيهما توهُّجَ الألمْ

رأيتُ فيهما العذابَ والشّموخَ والشّممْ".

يصمت قليلاً ثمّ يتابع:

"صناعتي الكلامْ

ربّما أثقلَ صوتي الضّعفُ والرّهبةُ أحيانًا

فعاد لي صداهُ، باكيًا حزينَ المُقتلتينْ

حتّى لَيبكيني صدى صوتي

فأنحني أمسحُ فوق شعره.. وأضغطُ اليدينْ

وأشربُ الدّموعَ من عينيه الطفلتينْ

ويَثْقُلُ الكلامُ في فمي

أحسُّ أحيانًا كأنّما كلامي في فمي

مثلُ جذوع الشّجر القديمْ"

رغد:

ـ ربّما كان هذا الشّعور الذي ينتابك فتجفّ الكلمات وتيبس على شفتيك سببه ما تلقاه الحبيبة إفريقيا من ظلم المستعمرين وطغيان المُستبدين.

الفيتوري

"صناعتي الكلامْ

لا وسام.. لا وشاح.. لا ذهبْ

لا رايةٌ تُظِلُّني.. ولا لقبْ

فلتغفري لي أنّني أجيءُ في نهار عيدكِ الكبير

والشّمسُ على صدرك ماسةٌ زرقاء تأتلقْ

صدرِك يا رائعةَ الجراح قبّةُ الأُفُقْ

وعرشِك الرّياحُ والجبال والسُّحُبْ

أجيءُ لاهثَ الأنفاسِ، مصلوبَ العُنُقْ

روحي سحابةٌ، وجسدي شَفَقْ

لا شيءَ في يدي

لا شيءَ في فمي

إلا بقايا مقطع قصيرْ

أعزفُه في خجلٍ على الورقْ".

رغد:

ـ تلحّ دائماً على أنك مجرد شاعر بسيط صناعته الكلام، ليس في يده حيلة سواه.

ـ نعم.. إنني أصرّ على أنّني لا أملكُ من وسائل النّضال غير الشّعر، وقد قدّمت شعري كلّه لأجل القضايا التي آمنتُ بها وما زلت.

ـ إن التزامك بقضايا الوطن يظهر واضحًا أيضًا في "خماسيات بيدبا ودبشليم" حيث نرى أن الدَّور الذي تسنده إلى بيدبا هو الدّور الذي تلتزمه أنت شخصيًّا في شعرك وتتّخذُ مِن بيدبا قناعًا تاريخيًّا له..

ـ أردت فعلاً أن أسلّطَ الضّوء على موضوعات عصريّة تتناول الحكام والمجتمعات وأخلاق النّاس، وعلاقة الحاكم بالمحكوم والإنسان بالإنسان.

ـ فرمزتَ بشخصية "بيدبا" إلى المُفَكِّر الملتزم أو الشّاعر الملتزم وبشخصية دبشليم إلى الحكّام والملوك وأولي الأمر.

الفيتوري:

ـ هذه واحدة من الخماسيّات وعنوانها "داخل السرير الملكي".

ـ "أخائفٌ أنتَ؟

...وهبَّ دبشليمُ مُغَضَبَا

وقال بيدبا:

ـ تنامُ يا مولايَ مهموماً وتصحو مُتْعَبَا واعجبا.

تَلبَسُ تاجاً من ذهبْ

وجبّةً من الحرير والقصبْ

وحولكَ الحجّابُ والحرّاسُ بالآلافْ

ثمّ تخافْ!

أهذه خاتمةُ المطاف؟!"

رغد:

ـ تعالج في هذه الخماسيّة قلق الحكّام وخوفهم المستمرّ مِن غضبة الشّعب.

ـ هذا عندما لا يكون الحكم مبنيًّا على الحق والعدل، وحين لا يسهر الحاكم على مصالح رعيّته.

ـ وهنا يظهر دور المفكّر الملتزم "بيدبا" الذي يتّصف بالصَّراحة والجرأة فلم يخف من غضب دبشليم وإنّما دفعه التزامه وشعوره بأنّه مسؤول عن قول الحقيقة وتنبيه السّلطان علّه يرتدّ إلى الصّواب.

ـ وفي خماسية "حوار" أيضًا:

"تقولُ لي يا دبشليمُ

وابتسامةُ الغضب

تنصِبُ ما بيني وما بينك

جسرًا مِن لهب

ـ أطبق فمكْ

حكمةُ هذا العصر أن تطبقَ عينيكَ

طويلاً وفمكْ

يا دبشليم الحقُّ صوتُ الله

وكلمة الحقّ هي الحياة

فلا تضقْ ذرعًا

إذا تحرّكت بها الشّفاه"

رغد:

ـ في هذا الحوار أيضًا يتجلّى التزام الشّاعر، ودور الكلمة التي تنطق بالحقّ، وخطورتها في حساب الملوك والحكّام.

ـ إن كلمة الحقّ هذه التي يجاهر بها بيدبا تُغضب دبشليم غضبًا شديدًا ولكي لا يفتضح أمر غضبه، تراه يغلّفه بابتسامة حادّة تنصب ما بين الملك والفيلسوف جسرًا مِن لهب، ويقول دبشليم لبيديا: أطبقْ فمكْ.

ـ كما تفعل السلطات المستبّدة في دول القمع والاستبداد.

ـ إن هذه السلطات المُستبدّة تستخدم كلَّ أنواع الضّغط ضد الشّعراء والكتاب وأصحاب الرأي الحرّ، وتكمّ الأفواه وتروّج ـ كما شاء دبشليم هنا أن يروّج ـ بأنّ حكمة هذا العصر هي في اللا مبالاة وعدم الالتزام أو الانتماء، وفي الأنانية والفرديّة وغضّ الطّرف عمّا يجري في البلاد.

ـ إن لزوم الصمت هذا لهو أشدّ فتكًا مِن الجريمة، لهذا فإنّ بيدبا لا يخضع لإرادة الملك، ولا يهتم لغضبه ولا يخشى بأسه وفتكه لذلك فهو يجيب الملكَ بصوته الملتزم الصامد فيقول:

"الحقُّ صوتُ الله

وكلمةُ الحقّ هي الحياة".

ـ إنّه يُحذّره من أن يحاول خنق هذا الصت لأنّه سيخنقه هو، فالكلمة الناطقة بالحقّ هي الحياة تتفجّر مهما يقف في طريقها، وإرادتها تفوق كل إرادة وقوّتها تتجاوز كل قوة:

"فلا تضق ذرعًا إذا تحرّكت بها الشّفاه".

رغد:

ـ أنت دائمًا في هذه الخماسيّات تؤكّد على دور الشّاعر الملتزم وتعبّر بصراحة وقوّة عمّا يختلج في قلوب النّاس وعقولهم:

"أكتبُ عن عصرك كيف انطفأتْ...

روعته وكيف

تعرجُ ساقاه، وتهرمان

كلّ لحظة تحت ثلوج الزّيف

أكتبُ عن عصركَ..

قال بيدبا، والسّيف يبكي في عناق السيف

وباطلٌ عصرُك، نارُه سجينةٌ

وشمسُه غريقهْ

والشّعر وحده هو الإنسان والحقيقة"

ـ "الإنسان والحقيقة" نعم لأن الشّعر هو الذي يخلد ويبقى.

ـ هذا إن مكان صادقًا حرًّا...

انتظار

انتهت المهمّة التي سافرت رغد لأجلها إلى القاهرة، لقد مرَّ الوقت بأسرع ممّا تتصوّر... كانت أيّامًا مشحونة ممتلئة بكلّ شيء، بالتواصل.. باللهفة...

أصرَّ أن يوصلها بنفسه إلى المطار.. عانقها مُؤَكِّدًا أنّ لقاءهما سيكون قريبًا في بيروت.

في الطائرة أغمضت عينيها لعلّها تنام قليلاًن ولكن شريط الذكريات أخذ يُلحُّ عليها.. إنّها تتذكّر كلّ كلمة قالها وكلّ إحساس رقيق حمّلها إيَّاه.. لم تكن تتوقّع أن يُحدِث لقاؤها به هذا الأثر العميق في نفسها..

ها هي ذي منذ اللَّحظة تنتظر اللّقاء المقبل، تعدّ الأيام التي تفصلهما...

وصلت رغد إلى بيتها حاملة الفرح والأمل وحزن الفراق.. بعد أقلّ مِن ساعة رنّ جس الهاتف، فاجأها صوته الممتلئ رقّةً وعذوبةً وصدقًا...

قالت بفرح:

ـ يا للمفاجأة الجميلة التي تطوّق بها قلبي وعنقي.

ـ أحببتُ أن أكون أوّل مَنْ يهنّئك بالسَّلامة وبالعودة إلى بيروت الحبيبة.

ـ اشتقت إليك، إنّ لهفتي للقائنا المقبل كبيرة.

ـ إلى اللقاء القريب أيتها العزيزة، تحياتي إلى والدك العزيز.. سأتَّصل بك مساءً.

في الأيام التالية كان يتصل بها دائمًا، يحدّثها عن مشاريعه وعن آخر قصائده... وفي يوم أخبرها أنّه سيأتي إلى بيروت بمناسبة ذكرى إلياس أبي شبكة.

أوقات الانتظار صعبة وطويلة، حاولت أن تشغل نفسها بأشياء كثيرة، منها أنّها كانت تقرأ أشعاره وجميع ما كُتب عنه مما كان يرسله إليها من كتب ومقالات.

أحبّت شعره، وحاولت أن تفهمه ووضعت الكثير من إشارات الاستفهام حول بعض الأشياء.

بعد أمسية أبي شبكة ولأيام تلت انشغل الفيتوري بالصّحفيين والأصدقاء والدّعوات الكثيرة... ورغد ما زالت تنتظر بفارغ الصّبر لقاءً مع صديقها الشّاعر الذي طالما ردّد أنّه آتٍ إلى بيروت ليراها...

أحسّت بالحزن، ها هي ثلاثة أيَّام قد مرّت ولم تره إلَّا مرّة واحدة خلال الأمسية الشّعرية، ثم اختطفه الأصدقاء والمعجبون.. إلى أن اتّصل بها يومًا وقال لها:

ـ أنا اليوم معك، اختاري المكان الذي تريدين.

طارت إليه فَرِحةً حاملة مجموعة دواوينه وباقة ورود قدّمتها إليه، أرسلها إلى غرفته ثم ذهب معها بسيارتها.

أوقفت السّيّارة أمام المطعم المطلّ على البحر.. نزلا منها وتَوَجَّها إلى زاويتها المفضّلة، سألها:

ـ أهذا هو مكانك المفضّل؟.

ـ نعم.. منذ فترة وكلّما أحسست بالرّغبة في الكتابة أو الخلوة بنفسي أحمل أوراقي وأقلامي وأهرع إلى هنا...

نظر إلى البحر وسألها:

ـ تحبّينه؟

ـ أعشقه، في هدوئه وصخبه، أرمي أحزاني فيسمعني، انظر إليه كم هو رائع، هل تتصوَّر صديقًا أجمل منه وأقدر!

ـ عيناكِ تلمعان وكأنّك تتكلّمين عن حبيب!

ـ نعم.. عندما آتي إلى هنا أعيش حالة وجدانية عميقة.. أتعرف كلما أردت أن ألقاك آتي إلى هناك، إنّه يفهمني ويسمع مناجاتي.

ـ اختيارك موفّق.. أحبّ أن أكون معك حيث تريدين.. لا يهمّ المكان، المهم أننا معًا.. أنت تعلمين أن أهم أسباب مجيئي هو شوقي إليك ورغبتي في لقائك.

رغد معاتبةً:

ـ ولكنك وصلت بيروت منذ أيّام، ولم تحاول لقائي قبلاً.

ـ كنت مشغولاً أوّلاً بإنهاء القصيدة ثم ببعض اللّقاءات الصّحفية.

ـ انتظرتُ لقاءك طويلاً.

ـ خفت إن التقينا أن يتغيَّر منحى قصيدتي ففضَّلتُ الانتظار.

ـ هل نتمشى قليلاً.

مشيا على كورنيش الرّوشة..

رغد:

ـ ليل بيروت رائع.. انظر هذا الكورنيش، إنّه ملاذ أهل المدينة يقصدونه ويفرغون فيه تعب أيامهم المشحونة.

ـ تتكلمين عن بيروت وعن كلّ ما فيها بحماس شديد!

ـ إنّها مدينتي التي خرجت إلى النّور بعد ليل مُظلم طويل، أنت تعرف كم عانت هذه المدينة وأهلها، ولكنها رجعت الآن كما كانت قبلاً، بل ربّما أفضل، فهي قد عادت برغبة صادقة بالبقاء.

ـ لاحظتُ رغبة الحياة هذه من خلال الحفل الذي دُعيتُ إليه، أحسست أن بيروت رجعت منارة الشّرق في الشّعر والفنّ والأدب.

ـ لا بدّ من أن تنفض الغبار الذي خلّفته الحرب الطّويلة.

ـ لبنان يجسّد الديموقراطية الحقيقية في المنطقة العربيّة المحاصرة بالكراهيّة والحقد والاختلاف والقتل والتّدمير.. لبنان يمثِّل حضارة المستقبل.

ـ وأنتَ أحببتَ بيروت حتّى العشق.

ـ ليس عشقي للبنان سببه جمال روابيه أو طيبة أهله، إنّما هو الحريّة، فلبنان هو وطن الشّعراء الأحرار.

ـ كان لك عدد من القصائد المُستنكرة المُنذِرة بالمصير الأسود، من أجملها قصيدة "لا.. ليس لبنان"...

يهزّ رأسه موافقًا:

ـ نعم.. اسمعي ما أقول.

ـ تحفظ شعرك كلّه؟!.

ـ أكثره.. القديم والجديد، نادرًا ما أنسى شيئًا..

"لا.. لا تقلْ دخلوا في الموتِ أو رحلوا

هناك مَنْ أمر الأبطالَ فانتقلوا

هناك لبنانُ، والأرضُ التي غضَبتْ

لوَقعِ أقدامِ مَنْ خانوكَ يا جَبَلُ

هناك إرثُكَ في الأرواح حيث سَرَتْ

أرواحُ مَنْ ملكوا الدّنيا ومَنْ شغلوا

هنالك القدسُ.. يا قدسَ النّبوّةِ ها

قد كان ما كان، ممّا سطّرَ الأزلُ

لكنَّ سكانَ برجِ الصّخرِ تدركُ أن البحرَ

آتٍ.. وأنّ الموجَ مُتّصلُ

سألتُ نفسي لمّا جئتُ مختلطًا

أكادُ أخلقُ في ذاتي وأرتجلُ

ماضِيَّ مجدٌ قديمُ النَّقشِ أحملُه

على ذراعي ميتًا، حيث أرتحلُ

ودارتي قطعة من صخرة سقطتْ

من نجمةٍ لم تزلْ في الأفقِ تشتعلُ

وبي من الهمِّ، ما بالكون من عربٍ

ضاقت بهم صحراءُ التِّيهِ فاقتتلوا

تقاتل الجبلان: القهر والبشر المسكون

بالقهرِ، والدّميتان: اليأس والأمل

أنا الشّقِيُّ بهم.. لم يبقَ في دمِهم

من عِزّةِ النَّفس إلَّا النّفط والعلل

أنا الشّقِيُّ بأحبابي، وإن يبسوا

كمثلِ ما تيبسُ الأيّامُ أو أفلوا

ففيمَ أزهو اغترابًا عنهمُ.. وأنا

كلّ الذين علوْا في الأرض أو سفلوا

وفيمَ أستنهضُ الأمواتَ معتذرًا

ما دام تاريخُ أجدادي هو البطلُ

غفوتُ.. لم أغفُ: مثل النّهر سابحة

أسماكُه.. وهو في استغراقه ثَمِلُ

نأيتُ.. لم أنْأَ: كان الموتُ يلبسني

حيًّا.. ويلصقُ في عمري وينفصلُ

بكيتُ.. لم أبكِ: مرّتْ غيمةٌ فسقت

غصناً من الورد يدنو ثم لا يصلُ

رأيتُ لم أرَ شيئًا: كان ثمّة في الآفاق

بغضٌ لوجه البغضِ يقتتلُ

صرختُ والدّمُ في راحات مَنْ شربوا

ولحم لبنان في أشداق مَنْ أكلوا

لمن إذن نصب الموتى سواعدَهم

فوق الجحيم، وشبّوا فيه واكتهلوا

وفيمَ أطلقَ طفلٌ جسمَه قمرًا

من القذائفِ، والتاريخُ مَنْذَهلُ

وغاصَ في وطنٍ كالحلمِ تحرسُه

عدالةُ اللَّهِ فوق الأرض والمثلُ

لبنان.. لا ليس لبنان الذي صنعوا

بالأمس أو قسموه اليومَ واحتفلوا

لا.. ليس لبنان عرض الطّائفي إذا

استقوى.. وألعوبة الحكّامِ إن عدلوا

لا ليس لبنان تلك الملصقاتُ على

الحيطان، تنزو جراحات وتندملُ

وليس لبنان هذا اللّيل يغسلُ عينيه

.. بذبح ضحاياه.. ويكتحلُ..

لبنان رؤيا نبوّات مقدّسةٌ

تُطِلّ في الكون مثل الكون يكتملُ

فلتستبقْ وحدة الأديان خالقها

إلى الوجود.. وتحصدْ زرعَها الرُّسُلُ".

ـ كم نتمنّى أن تكون لعبة الحرب الطّائفيّة قد انتهت، فقد سرقت الحرب أجمل أعمارَنا..

ـ ما رأيك لو جلسنا على تلك الحافة...

جلست وأنزلت قدميها إلى الفراغ وصار ظهرُها إلى الطّريق ووجهها مقابل صخرة الرّوشة.. جلس بجانبها.

قال:

ـ جميل المنظر من هنا.

ـ بل رائع.. أستطيع أن أعيش عمري كلّه مقابل البحر يعانق السّماء بحبّ.

ـ لم أتصوّر أنني أستطيع أن أجاريكِ في جنونك.

ـ الحرية في فعل ما نحبّ ليس جنونًا.

بعد ساعة تنظر إلى ساعتها:

ـ صارت الساعة التّاسعة والنّصف، لا بدّ أن أعود إلى المنزل.

ـ اللّيل ما زال في أوّله!

ـ أنتَ تعرف أنني من الكائنات النهاريّة، أمّا أنتم الرّجال فكائنات ليلية.

ـ حسناً.. أوصليني إلى الفندق ثم اذهبي إلى أحلامك السعيدة.

الرّموز النّضاليّة وقضايا الوطن

في اليوم التالي مرّت بالفندق لاصطحابه في جولة ثم لتناول الغداء.. اتّخذت طريق الجنوب ثم اتّجهت شرقًا نحو منطقة ملتقى النَّهرين إلى الجبل.. أثناء الطّريق كان صوت فيروز يرافقهما، قال:

ـ لقد تأثّرتُ بالرَّحابنة وأُعجِبتُ بفيروز وصوتها الذي يحمل عبقَ الأرض اللّبنانيّة والفكر اللّبنانيّ والإحساس اللّبنانيّ، كان صوتها وفنّها، هذا الذي أسهم الرّحابنة في صياغته وصقله، غذاء لروحي وفنّي.

ـ اسم لبنان مرتبط بأَذهان الناس جميعًا وبذاكرتنا بفيروز والرّحابنة، لقد جمعت أعمالهم الكلمة الصّادقة واللّحن المُعَبِّر والصّوت المميّز.

كم هو جميل هذا الوطن الذي رسمه الرحابنة على صفحات أغنياتهم فانتقل إلى قلوبنا وعقولنا على مرّ السنين.

تبدأ السّيارة بالصّعود ويبدو القلق على وجه الفيتوري الذي تمسّك بمقعدِه ثم قال بنبرة حادّة:

ـ أرجو أن تعودي.. اختاري أيّ مكان على السّاحل، أنا أخاف من الأماكن المرتفعة..

ضحكت وقالت مداعبة:

ـ لا تخف ما دمتَ معي، أنا دائماً عندما أصعد الجبال أقرأ الآيات القرآنية

وأتّكل على الله وأغمض عينيّ وأقود السّيّارة، فأنا أيضًا أخاف من الجبال والوديان.

ـ حسنًا، عودي بنا إذن فما زال في العمر بقيّة.

تعود أدراجها نحو السّاحل وتختار مكانًا هادئًا يطلّ على البحر.

يرنّ جرس هاتفه عدة مرات، فإذا ببعض الأصحاب الذين علموا بوجوه في لبنان. أخيرًا قالت له:

ـ أظنّ أنني اختطفتك اليوم لنقضي بعض الوقت معاً، أمّا هذا التّلفون اللّعين فإنّه يقتحم علينا خلوتنا.

ـ حسناً سأُسكته الآن.

رغد:

ـ لقد بنيتَ في لبنان وطنًا من الصداقات.

الفيتوري مقاطعًا:

ـ بل بنيتُ يا عزيزتي في قلبي عرشًا مِن الحبّ حتى صار لبنان جزءًا مِن نبضي.

ـ ولكنّك تنقّلت في عدد من الدّول، مصر، السودان، ليبيا، لبنان، المغرب، روما...

ـ لعلّني محظوظ تمامًا إذ أجدني إنسانًا آخر منتميًا بكلّ جوارحي إلى هذه المواقع، إنّها منابع ذكرياتي ومواقع طفولتي ومسارح أحلامي، وأنا لا

أستطيع أن أقول إنّ انتمائي إلى هذه يفوق انتمائي إلى تلك، إنني قطعة لحم بشريّ تحمل في ذاتها من هذا وذاك.

ـ قصّة الحبّ بينك وبين لبنان تظهر جليّة في قصائد عديدة.

تخرج الكتاب وتبدأ بقراءة قصيدة "إلى الأخطل الصغير":

"قفْ خشوعًا.. واخفضِ الرّأسَ

فقد أشعلَ الموتى القناديل

وقاموا

والذي تبصرُه عيناك

في ذلك الضّوء الرّماديّ زحامُ

والذي يسقطُ من أقدامهم

هيكل رثّ البقايا وحطامُ؟

يُكمل:

"عادت المعجزةُ الكبرى..

فللموتِ رغم الموت ـ بدءٌ وختامُ

فتعلّمْ كيف تُحيـي أُمَّةً

نَسِيَتْ أنّ البطولاتِ اقتحامُ

أنّ أرضَ الحرِّ مهما اغتربتْ أرضُه

فهي على الغيرِ حرامُ

أنّ تاريخاً مشت في ظِلِّه

قدمُ الطّغيانِ تاريخٌ مُضامُ

يا أميرَ الشّعر أغْضِبْها..

فقد تُخْصِبُ الروحُ، وَتَخْضَرُّ العظامُ

ولقد ينفضُ عن كفنَ الصَّبر

شعبٌ ثأرُه ليس ينامُ

ولقد يستلُّ يومًا سيفَه

ذلك العدلُ الجريح.. الانتقامُ..

أمّةٌ يثقبُ مِن رايتِها

كلّما امتدّتْ على الأُفقِ انقسامُ

وحزيرانُ على أبوابِها

لعنةٌ تغلي، وعارٌ، واتّهامُ

بعثروها.. مَزّقوا وحدتَها

فهي سودان، ومصر، وشآم

ونسوا أنَّ النَّواقيسَ غدًا

تتنادى، والموازينُ تُقامُ

ونسوا أن الضَّحايا أبدًا

نارها فوق الملايين ضِرامُ

أنتَ في لبنان..

والشّعر له في رُبا لبنان عَرشٌ ومُقَامُ

شاده الأخطلُ قصرًا عاليًا

يزلقُ الضّوء عليه والغمام

وتبيتُ الشّمسُ في ذروتِه

كلّما داعب عينيها المنامُ

أنتَ في لبنان..

والخُلْدُ هنا..

والرّجالُ العبقريّون أقاموا..

حملوا الكون على أكتافِهم

ورعوا غربَتَهُ وهو غلامُ

غرسوا الحبَّ.. فلما أثمرَ الحبُّ..

أهدوه إلى النّاسِ وهاموا..

غرباء.. ومُغنّين..

وأحلى أغانيهم على الأرضِ السّلامُ

أنتَ في لبنان..

والجرح كما كان يا لبنان..

والنّارُ ضِرامُ..

وفلسطينُ التي كانت لنا

سورةً تُتلى، وقُدَّاسًا يُقامُ

وشيوخًا تذكر الله..

فملء المحاريبِ صلاةٌ وصيامُ

ونبيّين صفتْ أرواحُهم

فلياليهم سجودٌ وقيامُ

كان بيتُ اللَّهِ قُدسيًّا بهم

قبل أن يأتي على القدسِ الظلامُ

وأتوا.. يا كبرياء انتفضي..

وانتقمْ يا جُرحُ.. واغضبْ يا حسامُ

قل لهم إنّ صلاح الدّين قد عاد

والمهدي والأنصار قاموا

وصحا الموتى الفدائيّون..

فالأُفقُ الشّرقيُّ نارٌ وقتامُ

قلْ لهم عودوا إلى هجرِتكم

ففلسطينُ هي الأرضُ الحرامُ

قلْ لهم إنّ المدى مُتَّسِعٌ

بيننا.. والحربُ دَيْنٌ والتزام

فأقيموا كيف شئتم

إنّما نحن أو أنتم عليها يا لِئامُ

يا أميرَ الشّعر..

والشّعر رُؤًى نبويّاتٌ عليهنّ لثامُ

واقفٌ منك أنا في حضرةٍ

هي كالبحرِ اصطخابٌ وارتطامُ

كلّما جئتُ كستني رهبةٌ

فأنا صمتٌ خجولٌ.. واحتشامُ

أدْنُوٌّ منكَ.. والدَّربُ ازدحامُ

وتناءٍ عنك.. والشّوقُ التحامُ

مثلُنا السُّفُنُ الغريباتُ

إذا الرّيحُ جدران على الأفقِ ضخامُ

وتصايحنا..

ولكن الرُّؤى انطفأتْ

وانهارَ في الصّمتِ الكلامُ".

رغد:

ـ القصيدة رائعة بما تحمله في طيّاتها من معاني الغضب والثّورة، وأيضًا بما تحمله من أمل بالمستقبل لهذه الأمّة.

ـ الأخطل الصّغير شاعر كبير، أنا أحببتُه وقرأت شعره وتأثّرت به، ولكنّني عندما أكتب عن شاعر أو سياسيّ أو شخصيّة مهمة فإن المعاناة التي يعيشها الوطن في كلّ أنحائه تظهر في القصيدة فتغطّي على المناسبة التي تقال فيها القصيدة.. أنا يا عزيزتي لا أكتب قصائد مديح ولا أتغزّل بشاعر أو بعينيه أو بشكله.

ـ الكثير من قصائدك تتكلّم عن رموز نضاليّة عديدة أو أسماء لشعراء مثل أبي شبكة والشّابي وغيرهم، وهناك أيضاً أسماء لشخصيّات قادت الكفاح الأفريقيّ السّاعي لإنهاء الوجود الاستعماريّ الأبيض الجاثم على القارة السّوداء.

ـ نعم "لومومبا، ونكروما، ومانديلا"..

ـ إنكّ في هذه القصائد اعتمدت التصوير الأسطوريّ في رسم الشخصيات التاريخية بحيث أن القصيدة لا تنحطّ إلى مستوى السّرد والحقائق السّياسيّة المباشرة ونظم الشّعارات.

ـ لأنّني شاعر ولست محرّرًا صحفيًّا ينقل الأحداث كما هي..

يفتح الكتاب ويقرأ قصيدة "لومومبيا والشمس والقتلة":

"في قلبي سيفٌ يقطرُ بالدّم

يتصبّبُ حقدًا وضغينهْ

يرجفُ غضبًا يا لومومبا

يا سيفَ بلادي الذّهبيَّ المدفونْ

المُصلتَ فوق رقاب الجلّادين".

رغد:

ـ وكأنّ الشّخص التّاريخيّ هنا يتحوّل إلى ظاهرة أسطوريّة في صورة سيف بلادكَ الذهبيّ المدفون المصلّت، رغم موته، فوق رقاب الجلَّادين.. رائع.

ـ وهو أيضاً ما زال مغروساً في أعماقي إذ أدعوه إلى البقاء، لأنه في تربة الروح لن يطوله الصدأ.

"لن أنتزعكَ من أعماقي

ابقَ مكانَكْ

ابقَ مكانَكْ

لن تصدأَ في تربةِ روحي

فتوهَّجْ في نار جروحي

اصبغْ أَعلامَ الثّورة، يا سيف بلادي

انشرْ أعلامَ الحريّة، فوق بلادي

كنْ شمسًا، فلقد ماتت هاتيك الشّمس

ما عادت تسطعُ ملءَ عيونِ المضطهدينْ

إنّا أشعلناها يوماً بمآقينا

ورفعناها فوقَ التّاريخ بأيدينا

وغسلنا جبهتَها بدماءِ مآسينا

ثمّ انطفأتْ يا لومومبا

لمّا أضحت شمسًا أخرى

تُحرقُ أيدي المُضطهدين

يا لومومبا..

في قلبيَ أنت

البطلُ الأسود ذو القدمين العاريتين

الرّاكضتين على نهر الكونغو

كانت تركضُ خلفهما أشجارُ الغابات

كانت تتهدّجُ لهما أنفاسُ الظّلمات

كانت أمواج الكنغو..

تُوغلُ في الرّكض

كان الفارسُ ذو الرّهبهْ

ذو الصّوت الفضيّ

عيناه عالقتانِ على نجمهْ

شفتاه مطبقتان على كلمهْ

كانت أصوات المضطَهدين

تجلجلُ في روح الأرض

يا لومومبا..

إنّ الخونة لا ينتصرون

لا يصبحُ بطلاً مَنْ خان قضيةَ شعبه

مَنْ أسقط رايته يوم نضاله

مَنْ سَدَّ عليه طريقَ الحريّهْ

مَنْ قَبّلَ أقدامَ القَتَلَهْ

أبداً.. أبداً.. يا لومومبا

لن يصبحَ "موبوتو" بطلاً

حتّى لو وضع الأغلالَ بكفّيكْ

حتّى لو صلبَ الثّورةَ في شفتيكْ

حتّى لو أصبحتَ شجينَّهْ

حتّى لو أصبحتَ طعينَّهْ

فستبقى في الأحقاد دفينه

تتطلّعُ في عينيْ شعبِكْ..

في عينيكْ..

في سخر لعيون القتلهْ".

ـ إنكَ وفي خضمّ التداعيات الأسطوريّة من لومومبا ما كان يقوم به في الحياة من دور نضالي في بلاد أفريقيا ساحباً بذلك صفة الموت عنه مثبتًا الفكرة الأسطوريّة التي لا تقبل موت الأبطال.

ـ الأبطال لا يموتون يا صديقتي، إنّهم يخلدون في ضمائر النّاس ويبقون سيفًا مصلّتًا على رقاب الظّالمين، نسيت أن أقول لك، إن الشّعراء كالأنبياء، هم أيضاً لا يموتون!

ـ نعم، فما زال امرؤ القيس والنابغة والمتنبي يعيشون بيننا ليس بأجسادهمبل بقصائدهم التي انتقلت على مرّ الأزمان حتى وصلت إلينا. أما قصيدة "إلى نيلسون مانديلا" فإنّها بما تتميّز به من صور أسطوريّة تؤكّد من جهة قدرة مانديلا الساكن أبدًا في طقوسه مثل إلـهٍ قديم على قلب السائد من مفاهيم مُسَلَّمة حيث أصبح السجين سجّاناً والعكس صحيح.

الفيتوري يقرأ:

"ساكنٌ أبداً في طقوسَكَ

مثلُ إلهٍ قديمٍ

يُرَصِّعُهُ ذهبُ الشمسْ

يا أبنوسَ الخريف الجنوبيِّ

كيف يكن جلال الشهادةِ

إن لم تكن أنتْ!

تُوْلَدُ في الموتِ

تكْبُرُ في الموتِ

تَطْلُعُ حقلَ نجومٍ على حائطِ الموتِ

تصبحُ أوسمةً من بُرُوقٍ

وعاصفةً من غناءٍ

وغاباً عظيماً من الرّقصِ

أذهلتَني في نضالِكْ

تَدْمَغُ أعناقَ مَنْ دمغوكْ

وتسجنُ في العصرِ مَنْ سجنوكْ

وأنتَ سجينٌ هنالِكْ

أغرقتني في اكتمالِكْ

مانديللا..

مانديللا..".

ـ المعنى هنا قويّ "وتسجنُ في عصرك مَنْ سجنوك" ثم يزداد أسطوريّة بالعودة إلى الحقيقة التاريخية عندما تقول "وأنت سجينٌ هنالك".

يهز رأسه مرَّات ثم يقول:

ـ ثمّ يأتي جوابه على ندائك:

"إنّما يحصدُ القهرَ

مَنْ يزرعُ القهرَ في زمني

إنّما يلبَسُ الخوفَ

مَنْ يَنْسَجُ الخوفَ في بدني

إنّما الموتُ موتُ ابتلائي

أمّا أنا فسأبقى

أُراقصُ حرّيتي

وأدافعُ بين هديرِ الملايين

عن وطني".

يقول:

ـ كأنني أعيش لقاءً وجدانيًّا معه.. آه...

"مانديللا

مانديللا

ـ إنّ حرّيتي هي ميراثُ أرضي

ومعجزتي

وتَوَهُّجُ دربي

مانديللا

ـ إنّ حرّيتي هي حرّيتي

في خلودِ نضالي

وفي عبقريّةِ شعبي

مانديللا

- إنّ حريتي هي بَدْئي وخاتمتي

وهي دِيني العظيمُ وربي

وكيف تكون سجينًا

وأنت هنالكَ ترسُمُ وجهكَ

في شَهَقاتِ الصبايا

وأدخنةِ الغُرَفِ المُعْتَمات

وفق رمادِ المناجمْ

كيف تكونُ سجينًا

وهم يلهثون وراءَك

تحت جسورِ بريتوريا

وبناياتِها الرّاعشات

وأنت تكافئُهُمْ بالهزائم

مانديللا..

أيّها البطلُ الشّيخُ

مُغتسلاً بمياه الثّمانين

مُختبئًا في تجلّيك

أنهكني سفري فيك

أعرف أنّكَ ضوءٌ على زمني

هكذا أنتَ

فامكثْ كما أنتَ

كنْ هكذا خَالِداً في معانيك

مُتّكئاً فوقَ مجدِ الثمانين

وابقَ مكانكْ

ابقَ مكانكْ

ابقَ مكانكْ".

رغد:

ـ رحلتك في النضال طويلة منذ أن بدأتَ صرختك الأولى لأفريقيا، ثم قصائدك التالية التي عبّرت عن كل المراحل التي مرّ بها الوطن العربي وغيره من مآسٍ وفجائع.. واليوم ما زال صوتك كما كان دائماً مرتفعاً ومعبّراً وصارخاً في وجه الظلم والاستعمار والاستبداد.

الفيتوري ينظر بعيداً والحزن بادٍ على وجهه:

ـ كنت أتصوّر في يوم من الأيام، يوم كنّا أبناء جيلي وأنا، نحمل باقات الأحلام داخل أجفاننا، كنت أتصوّر أنّ مَنْ سوف يعيش تلك الرحلة إلى مسافات بعيدة منها سوف يكون من حظّه أن يرى وجهاً آخر مضيئاً من وجوه هذا العالم، كنت أتصوّر أنّ وقتاً سوف يجيء وسوف نكون من بُنَاتِه، ضمن مَنْ سوف ينعمون ببعض الانتصارات والأيام الحلوة فيه، ولكن ها نحن ذا، حيث بدأنا وكأننا لم نَخْطُ خطوة واحدة إلى الأمام، القيود في الأرجل، والسلاسلُ في الشفاه، أقصد الحرية التي حلمنا بها.. أين هي اليوم!!..

ـ أظنّ أننا قد رجعنا خطوات إلى الوراء، ربما كان من حظّكم أنكم حلمتم وناديتم وساهمتم كلمةً وعملاً من أجل التحرير، ولكنّ الحرية الحقيقيّة لم ولن تتحقّق ونحن في بلاد تخترقها الانقسامات والعداوات والحدود الفاصلة بينها. والوحيد المغبون في كلّ هذا هو الشعب الذي فقد حتى مجرّد الحلم بالحرية وبالوطن الواحد.

ـ قضايا الوطن، لطالما حملناها وأثقلت كواهلنا، ولطالما كنّا من الدعاة للتقدّم والرقيّ. بعد نكسة 1967 أصابني كما أصاب غيري من القلق والشكّ والضياع فكتبت قصيدة "معزوفة لدرويش متجوّل"، وهي تمثِّل تجربة الصوفيّ أو المريد المتعلّق بشيخه يريد أن يعرف، يريد أن يتذوّق التجربة، يريد لطريقه ضياءً ونوراً، ويشكو من جفاف حياته واقترابه من الموت.

أقول فيها:

"شَحُبَتْ روحي، صارتْ شَفَقاً

شَعَّتْ غيماً وسَنَا

كالدرويشِ المتعلّقِ في قَدَمَيْ مولاه أنا

أتمرّغُ في شَجَني

أتوهّجُ في بدني

غيري أعمى، مهما أصغى، لن يُبْصِرَني

فأنا جسدٌ.. حجرٌ

شيءٌ عبرَ الشارع

جزرٌ غرقى في قاعِ البحرِ

حريقٌ في الزمنِ الضائعْ

قنديلٌ زيتيٌّ مبهوتْ

في أقصى بيتٍ، في بيروتْ

أتألّقُ حيناً، ثم أُرَنِّقُ ثم أموتْ

ويحي... وأنا أتلعثمُ نحوكَ يا مولايَ

أُجَسِّدُ أحزاني

أتجرّدُ فيكْ

هل أنتَ أنا؟

يَدُكَ الممدودة أم يدي الممدودة؟

صوتُكَ أم صوتي؟

تبكيني أم أبكيك؟

في حضرةِ مَنْ أهوى

عبثتْ بي الأشواقْ

حَدَّقْتُ بلا وجهٍ

ورقصتُ بلا ساقْ

وزحمتُ براياتي

وطبولي الآفاقْ

عِشقي يُفني عشقي

وفنائي استغراقْ

مملوكُك.. لكنّي

سلطانُ العشّاقْ".

يقول:

ـ في المقطع الأخير تأثّر كبير بالقصائد الصوفية، كأنني أسمع وأُردّد

كلمات جدّي الولي الصالح عبد السلام الأسمر مؤسس الطريقة العروسية الشاذلية.

ـ ربما كان الإحساس بالضياع وقرب النهاية دافعاً للانطلاق نحو الهدف والوقوف على أول الطريق الصحيح، وهو انطلاق الدرويش، الذي هو أنت، من الشيخ وكسر الحواجز بينهما.

تقلب رغد الصفحات ثم تفتح على قصيدة "يوميات حاج إلى بيت الله الحرام" وتقول:

ـ لن أطلب منك المزيد، فقط هذه القصيدة فأنا أحبها جداً وأقرؤها دائماً ولكني أريد أن أسمعها منك..

يبتسم ويقول:

ـ حسناً تعلمين كم أحب شعري، قديمه وجديده، وإنها لسعادة كبرى أن أردّده دائماً...

رغد:

ـ طبعاً القصيدة، قد كُتبت بعد نكسة 1967 وموضوعها هو قضية العرب أمام تحدّيات العصر وتحدّيات إسرائيل.

ـ أردتُ من هذه الجموع التي تتوجّه كلّ عام للحج أن تتبصّر بشؤونها الدنيوية إلى جانب اهتمامها بالشؤون الدينية، وأن تفهم الإسلام على حقيقته فهو ليس مجرد إيمان ميتافيزيقي، وشعائر تُؤدَّى منفصلة عن شؤون الحياة، إنما هو عقيدة وسلوك وتنظيم للحياة الروحية والحياة الزمنية.

"قوافلٌ يا سيدي قلوبنا إليكْ

تحجُّ كلّ عام

هياكلٌ مثقلةٌ بالوجدِ والهيامْ

تقرئكَ السَّلامْ

يا سيّدي

عليك أفضلُ السلامْ

على الرفاتِ النبويِّ كلّ ذرةٍ عمود من ضِياءْ

منتصبٌ من قبة الضريح

حتى قبة السماء

على المهابة التي

تخفض دون قدرك الجباهْ

راسمةً على مدار الأفق أفقاً عالياً

من الأكفِّ

يموجُ باسم الله:

ـ الحمد لك

والشكر لك

والمجد لك

والملك لك

يا واهب النعمة يا مليك كل من ملك

لبّيك لا شريك لك

لبيك لا شريك لك

يا سيدي عليك افضل السَّلام

من أُمَّةٍ مُضَاعَهْ

خاسرة البضاعَهْ

تقذفها حضارة الخراب والظلام

إليكَ كلّ عام

لعلّها أن تجدَ الشفاعَهْ

لشمسِها العمياء في الزحام"

رغد:

ـ إنها مضاعةٌ حقًّا، فقد تاهت في سراديب مظلمة ألقاها فيها العصر الحديث فابتعدت عن تراثها الديني والقومي والحضاري فأضاعت شخصيّتها وتنكّر لقيمها وغرقت في حضارة الغرب التي لا تعرف منها إلا القشور.

"يا سيّدي

منذ ردمنا البحر بالسدود

وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود

متْنا..

وداستْ فوقنا ماشيةُ اليهود

يا سيّدي

تعلمُ أنْ كان لنا مجدٌ وضَيّعناه

بَنَيْتَهُ أنت، وهَدَّمناه

واليوم ها نحن!

أجل يا سيدي

نرفلُ في سقطتنا العظيمهْ

كأننا شواهدٌ قديمهْ

تعيشُ عمرَها لكي

تُؤَرّخَ الهزيمهْ!!

لا جمرَ في عظامِنا ولا رمادْ

لا ثلجَ لاسوادْ

لا الكفرُ كلّه ولا العبادَهْ

الضعفُ والذّلّة عادَهْ

يا سيّدي

علّمتنا الحبّ

فعَلذمنا تَمَرُّدَ الإرادهْ

ابكِ لنا

وادعُ لنا

فالعصرُ في داخِلنا جدار

إن لم نُهَدِّمْه

فلن يغسِلَنا النهارْ".

رغد:

ـ هنا يظهر واضحاً موقف الصوفيّ الثّوريّ الذي يدعو إلى الثورة وإلى القوة، قوة الإرادة، لأن الإنسان العربي بدون هذه الإرادة لن يستردّ ما فقدمن مجد وسؤدد ولن يستطيع أن يصنع مستقبله المنشود.

قراءة في كتاب القلب

رحل الفيتوري عن بيروت، ولكنّ العلاقة بينهما كانت تزداد قوّة وجمالاً.. يتّصلُ بها دائماً أينما كان يخبرها آخر ما عنده ويسألها عن آخر أعمالها وعن أخبار البلد ويردّد دائماً بلهفة وصدق: لبنان الجميل. كم رغبت في أن أكون جزءاً من الحياة الحرّة اللبنانية.. أن أرفضَ، أن أصرخَ.. أن أقولَ.. أن أقف.. لقد عرفت الحرية من خلال قراءاتي للّبنانيين الأوائل، جبران، ونسيب عريضة، ونعيمة وأبي ماضي والأخطل، هؤلاء هم أنبياء العصر..

ما زالت تذكر تعاطفه الكبير يوم دخل والدها المستشفى ليجري عملية جراحية بالقلب، كان يتّصل بها كل يوم ليطمئن عليه، ويسألها إن كانت بحاجة إلى أيّ شيء فهو مستعدّ لكلّ مساعدة. ازداد حبّها له وإعجابها بإحساسه المرهف ومشاعره الرقيقة التي جعلته قريباً من كلّ مَنْ يعرفه.

رنّ تليفونها، عانقها صوته بحنان:

ـ أين أنت الآن؟

ـ في مكاني المفضّل، على البحر.

ـ وحدِك؟

ـ معك.

ـ ألم أقل لك إن المسافات لن تفصلَ بيننا.

ـ نعم.. لكنني أشتاق إليك نعانق البحر معًا.

ـ أنا دائماً في كلّ مكان أنت فيه، أنت في قلبي و.. أخبريني هل تتابعين أعمالك..

ـ نعم.. أقرأ كتب الحب في التراث العربي..

ـ اقرئي يا صديقتي كتاب قلبك أولاً..

ـ قلبي أم قلبك؟

ـ قلبي يا أميرتي كتاب مفتوح أمامك، ولكن حاولي أن تفهميه.

ـ قلبك مفتوح لكلّ حبيباتك اللواتي كنّ واللواتي تعرفهنّ الآن..

ـ أنت الآن تكتبين الصفحة الحالية.. والآن أفضل من أمس.

ـ أخشى أن أغرق في الحبر و...

ـ ستكونين قصيدة في حياتي..

رغد مداعبة:

ـ على أن لا تكون قصيدة هجاء!..

ـ ستبتسم الأقدار لك إن أحببتكِ وستخلدين في شعري وفي كلماتي.

ـ شاعري المغرور.. ما زلت تضع (إن) قبل فعل الحب، وأظن أن الحب عندي قد أصبح فعلاً أعيشه منذ عرفتك..

ـ أخاف عليك من حبي، أحاول أن أجد له المناخ المناسب.

ـ الحب يا صديقي ليس بحاجة إلى كتالوج خاص.. إنه يولد فجأة ويكبر فينا بدون استئذان..

الفيتوري ضاحكاً:

ـ آه يا عزيزتي.. بدأت تُحاضرين في الحب.. هذا يعني أنك قبلت نصيحتي، بدأتِ تقرئين كتاب قلبكِ..

رغد بإصرار:

ـ أقرؤه ولا أخاف..

ـ حسناً.. عودي إلى بحرك الجميل وإلى عملك الرائع.. سأتصل بك غداً..

ـ إلى الغد.

وضعت رغد التلفون على مجموعة الأوراق المكوّمة على الطاولة، ورحلت بنظراتها إلى البحر.. إنها تشعر منذ أن عرفته أنها ملكة متوّجة على عرش الأنوثة والجمال والشّعر.

بين الالتزام الوظيفيّ والحريّة الفكريّة

عاد الفيتوري إلى بيروت مستشاراً سياسياً في السفارة الليبية، في اليوم التالي لوصوله ذهبت إلى الفندق حاملةً باقة من الورود.. قدّم لها علبة صغيرة، فتحتها فإذا فيها سوار فضّي وخاتم وأقراط..

ـ ذهبتُ خصيصاً إلى خان الخليلي وطلبت إلى البائع أن يختار لي هدية تليق بصديقتي الصغيرة.

رغد مبتسمةً:

ـ لست صغيرة.. إنها جميلة جداً على كلّ حال.

خلعت أقراطها الذهبية وخاتمها ولبست الفضّيّة التي أحضرها لها.

ـ لقد زيّنتِها يا عزيزتي فازدادت جمالاً.

ـ إنّها جميلة لأنّها منك.

في الأيام التالية وبعد أن استقرّ في عمله طلبت إليه تخصيص بعض الوقت لقراءة شعره من أجل الدراسة التي تعدّها عنه، وصارت تمرّ إلى السفارة أو يذهبان إلى أي مكان هادئ محمّلين دائماً بمجموعة دواوينه الشّعرية وأوراق مكتوبة وأخرى بيضاء.

قالت له مرّة وهي تتّخذ الطّريق الجبليّ نحو (برمانا):

ـ سأصطحبك إلى طعم رائع اسمه (جدودنا).

ـ دائماً تعودين بي إلى الماضي حتى في اختيارك للمطاعم.

ـ هذا المكان يذكّرني بالعراقة والتاريخ، حتى اسمه يوحي لك بالأصول.

وصلا إلى المطعم وطلبا بعض الطعام، سألته فجأة:

ـ تعلم، أنا أعجب عندما أقرأ شعرك ومسيرة نضالك الطويل من أجل الوصول إلى الحرية، أعجب عندما أراك ملتزماً بوظيفة ديبلوماسية، ومرتبطاً بمواعيد للحضور والمغادرة.

ردّ بعد تفكير قليل:

ـ أنا حرّ دائماً.. لا يمكنني إلَّا أن أكون حرًّا.. ليس هناك أي تناقض بين منصبي الدبلوماسي وبين أن أكون حرًّا.. أنا لا أتحرّك في هذا الكون تحت أمر شخص ما، أو إرادة شخص ما.. أتحرّك ثلما يملي عليّ إحساسي.. أعلم أنني شاعر.. هكذا وُلدت وهكذا نشأت.. وهكذا أرادت الأقدار لي.

ـ ولكنك، ومنذ أن أعطاك القائد القذافي الجنسيّة اللّيبيّة، تعمل ضمن نطاق سياسة معيّنة وتدور في فلكها؟

ـ أنا قبلتُ العمل كدبلوماسيّ ليبي لأنّي فعلاً أحببتً القذافي، أنا معجبٌ حقاً بفكره ورؤياه للواقع العربي والدولي ورغبته في النهوض بشعب اضطُهد وعُذِّبَ وأُهينَ حوالي خمسمائة عام تحت ظلّ الحكم العثماني والحكم الإيطالي الفاشي، ثم تحت ظلّ مختلف القوى التي عبثت

بمقادير هذا الشعب.

ـ وأنت كتبتَ عنه وامتدحتَه!

ـ أنا يا عزيزتي شاعر.. أكتب عن شخصيات مرّت في حياة الوطن، أتكلّم عنها بصراحة وبتجرّد فأذكر حسناتها وسيئاتها والأدوار الأساسية لتي قامت بها خلال رحلتها، غير أنني أؤكّد لك أنني لست شاعراً مدَّاحاً.

انظري أشعاري كلّها، حتى التي كتبتها عن القذافي، أنا لا أمدحه ولا أتزلّف إليه بغيةَ إرضائه، إنني أقول الحقيقة ليست إلّا.

يصمت قليلاً ثم يتابع:

ـ حسناً سأقول لك.. القذافي هو أول شخص يخرج من أعاق هذا الشعب المضطهد ليرفع راية الحرية والسيادة والوطنية والدعوة إلى أفق آخر من آفاق العمل القومي العربي والأفريقي.

معمر القذَّافي رجل بسيط، من بيت بسيط، من قبيلة بسيطة.. عاش وعانى من الواقع الاستعماري ومن ظروف تخلّف شعبه.

ـ فقاد الثورة وانتصر.

ـ إنه حالم كبير.. حالم تاريخي.. هو يريد أن يصنع من ليبيا واحة للحرية الحقيقية والديمقراطية الحقيقية، ومن هنا كانت الحرب الإعلامية التي تُوَجَّه ضدّه.

لا أحد يستطيع أن ينكر أن هذا الرجل صاحب طموح من أجل شعبه ووطنه.

ـ أنتَ قد عرفته منذ أن قامت الثورة...

الفيتوري يعود بذاكرته إلى ذلك اليوم البعيد... يقول:

ـ في أول لقاء لي به بعد الثورة، ربما هو ثالث أيّامها، في مبنى الإذاعة الليبية وقد تحوّل إلى مركز لإدارة الثورة، في ذلك اليوم، أذكر أنني قلت له: إيّاك أن تتحوّل إلى طاغية بعد أن تحقّق الثورة انتصارها على الأرض الليبية...

يومها أبدى القذَّافي ورفاقه دهشتهم من توجيهي هذا الكلام بهذه الصراحة والجرأة، وابتدرني القائد قائلاً: نحن أبناء هذا الشعب ونحن من أعماقه فأسألك كيف نتحوّل إلى طغاة؟!

رغد:

ـ بماذا أجبته؟

ـ قلت له: تتحوَّل إلى طاغية عندما تسمح للطّبقات الطّفيليّة أن تفصلَ بينك وبين الجماهير.

وفي صدق وحميمية ربّتَ على كتفي وقال: لا تخفْ لن نغادر مواقعنا وأهدافنا التي جئنا من أجلها.

رغد تقلّب صفحات الديوان وتقول:

ـ ألا توافقني أن قصيدة "سورة الفقير" موجَّهة إليه.

يأخذ الديوان ويقرأ:

”لكَ دمعُ العيون التي عانتقك باحداقِها

في صباح العذاب الجميل

يومَ جئتَ من المستحيل

ناسجاً بيديكَ حريقَ الإرادةِ والمستحيلْ

صاعداً فضّة في الشروقْ

سائلاً ذهباً في الأصيلْ

غارساً بذرة الغدّ، في رَحِم الأمسْ

مُنصهرَ الذات في اللّهْ

مقتلعاً مثل عاصفة أخرياتِ المسوخ

المقيمةِ في الصخرْ

يا وطني العربي المُغَلَّف في كُتُبِ الرملْ:

قلبي أنا ليس قلبك هذا العليلْ.

... وحَلَّقتَ سهماً ودائرةً:

ـ سوف ينبثقُ العصرُ من هذه الهضبات

ويجرف دنيا توشّحت القحط والقهرْ

لا أقرأ الغيب..

لكنّما أُبصرُ الحلمَ عبرَ عيونِ بلادي:

وإنْ أبطأتْ موجةُ الصيف..

فالأرضُ مشمسةٌ خلف تلك التلالْ

ولا بدَّ من زَهَرٍ في الحقولِ البعيدهْ

لا بدّ من قمرٍ في الحقولِ البعيدهْ

لا بدّ من قمرٍ في الزمانِ البخيلْ

ومن لم يكنْ زهراً

أو يكنْ قمراً

فليقفْ جانباً

إنَّ عدلاً على هذه الأرض..

ليس هو العدل. ما بقيَ السّوطُ يستنطقُ الناس".

ينظر إليها ويقول: أنا هنا أوجّه الحديث إلى معمّر شخصياً:

"فليركل الميّتون مقابرهم.. ولتقمْ آيةُ العدل

هم صوّروا اللّه فوق سقوف معابدهم كيفما حلموا".

يقول:

ـ أقصد الحكّام الطّغاة..

"إنّما اللَّه في النّاس

لا مثلما زعم العاكفون على الرّمل...

دائرًا في الدُّجى، لم يزل حلم ذاك الفقير

الذي أمسك الشمس في راحتيه قديما

وأفلتها حجرا..

دائرا...

كان في المتعة المستريحة، في سُررِ الكون

ربٌّ عجوزٌ، يطير بزحافتين من الثلجْ".

يقول:

ـ أتكلّم عن ما قبل الثورة.

"ثم توغّلَ في التِّيهِ فابتلعته العصور

وما فتئ الجندُ منذئذ

يرقصون عرايا الجسوم على رقعةِ الشّطرنجْ"...

يقول:

ـ أعود هنا فأوجّه السؤال للقائد اللّيبيّ ولآخرين:

"لماذا إذن؟ ولمن كلُّ تلك الذبائح

سادرةً في مواسمِها

ولماذا يجيء النبيّون والشهداءْ، كأن لم يجيئوا؟

الزخارفُ تبني البيوت، وتسكنُ سكّانَها..

والطقوس مقدّسةٌ

لستُ أحسدُ مَيْتاً على أنه لابسٌ كفناً من حريرْ

ولكن أسألُ الميتين..

ـ وماذا لو امتلكَ السّيفَ والعرشْ

غيرُ الذي امتلكَ السّيفَ والعرشْ

قال لها، وهو يحفر شاهدَهُ في قبور المدينة

ميلي هبوطًا إلى الهاويهْ

واستخفّي، فيا طالما نسجَ العنكبوت

شباكاً على حجر الزّاوية".

الفيتوري:

ـ أقول له أخيرًا:

"يومَ جئتَ تَحسّسَتِ الكائناتُ جدائلَها البِيض..

واغتسلتْ باليقين لأوّل مرّة

وأطلّت من الصّحراء نجوم، لأوّل مرّة".

ـ إنه تفاؤل بقائد جديد قادم من الغيب..

ـ إنها رؤيا خاصة.

ـ وقصيدة "وقال مسعود الحكيم".

ـ مسعود الحكيم هو الإنسان البسيط الفقير العادي الذي قامت الثورة بزعم أنها قامت لتحسين واقعه.

ـ القصيدة حوار بين مسعود الحكيم، الذي هو الشّاعر النّاطق باسم شعبه، وبين القائد الآتي باسم المستقبل والتغيير.

تبعد نظراته وكأنه يسترجع رؤيا بعيدة ويقول:

ـ عندما قامت الثورة، أول سبتمبر سنة 1969، كنت في ليبيا قادمًا من الجزائر حيث حضرت مؤتمر الفنون الأفريقية المنعقد حينذاك، وبعد أيام كان العقيد قد بدأ يحرّك الجماهير نحو تصوّره الذي يراه هو لبناء ليبيا أو الجماهيرية كما أسماها فيما بعد.

يومها وَجَّه الدعوة إلى جميع الليبيين من كافّة الأقاليم والواحات والقرى ليلتقي بهم في بنغازي.. جاؤوا جميعهم تلبيةً لدعوته، شباب وعجائز، مشلولين ومكرسحين ومجدوري الوجوه ومتّكين على عكاكيزهم.. كنت هناك أراقبهم في ساحة المطار.. ياالله.. هؤلاء الناس كان محكومٌ عليهم قبلاً بالموت والفناء.. كانت تلك المخلوقات تولد وتموت في نفس الوقت فقد حُكم عليها بالشّقاء الأبدي..

أشهد أمام الله..

لقد دعاهم العقيد.. قال لهم: تعالوا احكموا البلد.. تعالوا شكّلوا اللّجان الثّوريّة.. تعالوا أعيدوا تقويم واقعكم الاجتماعي الجديد..

جاؤوا من كلّ صوب.. ما زلت أذكر وجوههم في ذلك المساء في مطار بنغازي.

كأنهم أمامي الآن.. وقفت مندهشًا أراقبهم من بعيد...

ومضت الأيام... وبعد فترة غير محدّدة من الزمن رجعت هذه الصورة إلى ذهني فكتبت هذه القصيدة "وقال مسعود الحكيم" أظن عام 1987.

"كانوا وكان هناك".

يقول:

ـ كانوا أي البسطاء، هؤلاء الناس، وكان، هو، القائد.

"كاد يَفُضُّ سَرَّ عذابِه لآخَرين.. ولم يَكَدْ

وكأنما انطبقتْ توابيتُ الكلامِ على الشفاهْ

هي كَلْمَةٌ نَبَوِيَّةٌ

لو قالها، يا ويلَتاه

لَتَصَدَّعَ التاريخُ بين يديه

وارتطمتْ على قَدَمَيْهِ تيجانُ الطُّغاهْ".

رغد:

ـ ترى ما هي هذه الكلمة السرّ التي لم يبحْ بها الشّاعر؟

يتابع الفيتوري القراءة:

" كان الذين أَتَوْا من الماضي

يعانقُ بعضُهم بعضاً

ويمضي في اضطرابِ الموج

أَو يَصْطَفُّ عَبْرَ شخوصِهِ المُتَبَرِّجاتِ هناكْ

كانَ الزعترُ الجبليّ

والزَّقّومُ يَدفِنُ رأسَهُ قَلِقاً

وأغصانُ الأراكْ

وفراشةٌ ذهبيَّةٌ

تعلو وتهبطُ في الشِّباكْ

وأَتَوْا يدوسونَ المدائنَ

قال مسعود الحكيم

ـ الشمسُ زهرتُنا التي انسكبتْ على جَسَدِ الجنوب".

الفيتوري:

ـ مسعود هو رمزهم، وهو هنا يتوجّه بكلامه إلى القائد، والجنوب الليبي هو الجنوب الأفريقي الأسود من ليبيا.

يتابع:

"وأنت زهرتُنا التي انسكبتْ على أرواحِنا

فادفع شراعكَ صَوْبَنا

كي لا تضيعْ..!

وافرِدْ جناحَكَ في قوافِلَنا

إذا اشتدَّ الصقيعْ

واحذرْ بكاءَ الراكعين الساجدينَ لديكْ

إنّ اللَّه في فرحِ الجُموعْ

واخجلْ

إذا هطلتْ عناقيدُ الدموعْ

وكان للكلمات ريشُ الطّيرْ

والفقراء كانوا يدفِنونَ رؤوسَهم

في صوتِ مسعود الحكيمْ".

الفيتوري:

ـ مسعود هو الشّاعر، الرمز المعبّر عن طموح الشعب وآماله.

يتابع:

"وقالَ للرجلِ الذي استولى

على فلكِ النّجومْ:"

يقول:

- الرجل هو القائد طبعًا.

"لمن أتيتَ إذن؟

وأنت كما ترى

حُجُبٌ، وأبواقٌ مُذَهَبَّةٌ

وعَصرُكَ في يديكْ

لمنْ أتيتَ إذنْ؟".

الفيتوري:

ـ أقول له لقد بدأ يقف بينك بين الناس حُجبٌ وحرذاس مسلّحون وأبواب، وهنا تحذير من البعد ومن إقامة الحواجز.

"لمن أتيتَ إذن؟

وقد تداخلت البراقعُ في البراقعْ

واستوى الماشونَ في الإعصار

واختلطوا لديك

لمن أتيتَ؟

وأنت تنقُضُهُمْ، وتغزَلُهُمْ

وتنقضُهُمْ.. وتغزِلُهُمْ

وتَعقِدُ حاجبيكْ..

اعلمْ بأنَّ قماشةَ الأيام

من خيطانِ غَزْلِكْ

من خيطانِ غَزْلِكْ

وهي ضافيةٌ عليكْ

اسمعْ ولا تغضبْ

أَو اغضبْ كيف شِئتَ..

أصابعُ الفقراءِن مثلُ حرائق التاريخ

تُشعِلُ نارَها أبداً

وتسكنُ جانبيكْ

وقال مسعود الحكيم:

ـ وحقِّ عِلْمِكَ بي..

وحِكمتكَ التي هي بعضُ جهلي

إنني استبقيتُ أيّامي عليكْ".

الفيتوري:

ـ يقول له: سأبقى معك ولن أخونك.

"وأنتَ تعرفُ أنّني استبقيتُ أيامي عليكْ

فأنتَ في لوحِ البهاء السَّرمديّ

حكايةٌ قمريَّةٌ

تحلو قراءتُها لمثلي".

رغد مبتسمة:

ـ إنه غرور الشّاعر، فأنت تقول إنك تقرؤه أي تفهمه جيداً؛ وكأن للشاعر عيون القدر التي تترصَّد الأشياء والأشخاص.

الفيتوري:

ـ يعود هنا صوت الشّاعر وهو يتكلم عن القائد وحلمه بالانعتاق قبل الثورة:

"كانَ يا ما كانَ

في الزمن الطريحِ على فراشِ الموتِ

كان فتًى من الصحراء

يدخلُ ظلَّ خيمتِهِ ويَحْلُمْ

كان يَحْلُمُ

كان يحلُمُ

ثم تمتدُّ على الآفاقِ في عَيْنَيْه

رؤيا الانعتاق

لم يكنْ ثَمَّةَ إلّا السّرُّ والسّرُّ

وغيمٌ أزرقٌ

يحجبُ بوّاباتِ فزّان

وخمسٌ من رفاقْ

لم يكن ثَمَّةَ في فَزّان إلّا لؤلؤُ النخل

وياقوتُ الينابيع العِتاق

وشفاهٌ هي بين الله والأرض وثاقْ

كان يا ما كان..

لكن الفتى الحالمَ بالبرقِ وأقواسِ الغمامْ

كان يبدو مثلَ مَنْ لَوَّحهُ العشقُ

وأضناهُ الغرامْ

كان مسكوناً بأشباحِ الظلامْ

وبأجيالٍ على أرصفةِ القهرِ تنامْ

كان يا ما كان

واسترسلَ مسعودُ الحكيمْ

في حكاياه عن الأحياء والموتى

وأبطالِ الأساطير

وغَنَّى مثلما كان يُغَنّي من قديمْ".

الفيتوري:

ـ الخطاب هنا للقائد الليبي ولكلّ الحكّام العرب:

"أيّها الصّاعدُ نحو الشمس

كم من صاعدٍ قَبْلَكْ

كم من صاعدٍ بَعْدَكْ

في أُرجوحَةِ الكونِ العظيمْ

فَتعلّمْ، وَتَعَلَّمْ

أنّ إشراقةَ أيّامِكَ في إشراقةِ الناسْ

وأنّ القهرَ موتٌ يسكنُ القاهرَ

والبغض رمادُ الرُّوح

والظّلمُ عقيمْ

وتعلَّمْ..

أنّ عدلَ اللَّهِ في الأرضِ..

وفي الناسِ مُقِيمْ".

يغلق الكتاب ثم يقول لها:

ـ هل تجدين الآن أيضاً أنني أمدح أو أتزلّف؟

أنا لا أمدحُ أحداً.. أنا معجبٌ بالقائد الليبي لكن هذا لا يمنع أن أُخاطبَه وأُنبّهه وأقول له: إيّاكَ والطغيان، إيّاك والظلم.. إياك والأبواب والحُجب بينك وبين الناس.

نهرٌ ظامئ للحبّ

تدخل رغد مكتب الفيتوي الذي يرحّب بها كعادته بكلّ مودّة وبشاشة.. ويقول:

ـ كما أنت دائماً متألّقة وجميلة... وأيضاً محمّلة دائماً بالكتب والأوراق.

تضحك:

ـ وبجهاز التسجيل، لقد أحضرته خصيصاً لنسجّل بعض القصائد..

ـ حسناً، ماذا تشربين...

ـ أي شيء، قهوة.

طلب القهوة ثم أخرج ورقة مكتوبة ودون أن يريها إياها قال:

ـ سأقرأ لك هذه القصيدة:

"لو كان لي لَجَعَلْتُ وَجهَكِ معبدي

ولَكنتُ أوقفتُ الجمالَ عليكِ

وسكبتُ شِعري شمعةً ذهبيَّةً

أبداً مُحَدِّقَةً إلى عينيكِ

فَلَأَنتِ أروعُ مَنْ عَشِقْتُ.. وربما

سجدتْ صباباتي على قدميكِ

يا فتنةَ العشّاق.. يا محبوبتي

أنا مَن رآكِ وغابَ في شفتيكِ

أنا مَنْ يُعَذِّبُه الجمالُ وطالما

عصفَ الجمالُ به.. فعادَ إليكِ

فتقبّليني مثلما أنا شاعرٌ

يتعلّم النسيانَ بين يديكِ".

ـ أنتَ كتبتها؟

قال ضاحكًا:

ـ بل إنّها قصيدة لشاعر قديم.

تخطف الورقة من يده وتقول:

ـ إنه خطّك، ولكنّها ليست أنت.. ليس أسلوبك..

ـ حسناً، بعد أن قرأت كتابك الذي أهديتني إيّاه عن الحب في التراث العربي حاولت أن أكتبَ كما كانوا يكتبون، غزل فقط، ما رأيك.

ـ إنّها جميلة..

ـ فلنقلْ إنّها بوحي منك ومن هديّتكِ الجميلة.

ـ حسنًا.. يقال دائماً إنّك قد غنّيت للنّور والجمال والحبّ، ولكنّ قصائدك القديمة فيها الكثير من الغموض، غموض فكرة الحب في بعض القصائد، وعدم التعبير المباشر عنه في قصائد أخرى.

ـ هذا صحيح، لأنّ فكرة الحبّ كانت بالنسبة لي غامضة، أو ربما الظروف التي كنت أعيشها يومها كانت تفرض عليَّ جوّاً خاصاً.

رغد تفتح الديوان وتقول:

ـ قصيدة "الليل والحديقة المهجورة" تحكي عن تجربة حبّ فاشلة.

يتناول الديوان منها ويقول:

ـ نعم.. إنّها قصَّة حبّ فاشلة ذكّرتني أو ارتبطت في داخلي بالضّياع الأفريقي.

يقلب بعض الصفحات ويقول:

ـ وقصيدة "الأفعى" أيضًا أتكلّم فيها عن تاريخ العبوديّة حيث تنعكس مواجع الجدّة زهرة التي لَقَّنتني مواجع القارّة..

"في ذلك الرُّكن من قلبك

الحقير المُرائي..

تمتدّ مقبرة ضخمة..

بغير انتهاءِ

فيها عبيدٌ عرايا الأسى

عرايا الشقاءِ

تحملُ أيديه الشّوهاء

حقدَ الدّماءِ

وملءُ أرواحِهم

نقمةٌ على الأحياءِ

رأيتُهم يتهاوَوْن

في جمود المساء

والرّيحُ من حولِهم

كالحوائط السّوداء

واللّيل بئر كبير

مختلط الأشياء

وأنت.. أنت وراء الجميع

طيف القضاء

تضطجعين بصمت مُرٍّ

كطعمِ الدّماء

في هودج ذهبيٍّ

مزركشٍ بالضّياءِ

يدوسُ فوق عظام الفانين

والغرباء

فتستبدُّ بأذنيكِ لعنةُ الأصداء".

يقول:

ـ هنا الشّاعر، أنا، يحبّ نقيضته البيضاء، ثم يربطها بمصير أجداده الذين ظُلِموا من قِبَلِ أجدادها فهو في موقف المحاسبة معها...

"وتضحكين بحقدٍ

بلذّة باشتهاء

وتحلمين كأفعى

تنام في استرخاء

على رمال الصّحارى

اللّهبيّة الصّفراء

بفارسٍ قدماه

فوق جبين السّماء

أسودَ قد أنضجته

مواقدُ الصّحراء

تفوح من إبطيه

رائحة الأنبياء..

وفي خطاه..

جلال النّبوغِ والكبرياء..".

يقول:

ـ إن القصيدة صراع بين الشّاعر والتاريخ بشخص امرأة يتصوّر هو أنها تحمل أخطاء ذلك التاريخ..

ـ وكأنّ تاريخ الشّاعر الخاص هنا قد توحّد بتاريخ أفريقيا فخلع عليها مأساته الخاصة وقارن بين الحبّ الفاشل وبين الضّياع الأفريقي والظلم الذي تعرّضت له.

ـ إن الظّروف التي كانت تعيشها إفريقيا والتي كنتبُ مسكونًا بها كانت مسيطرة على كتاباتي كلّها.

ـ لذلك ففي قصائد كثيرة نجدك تبدأ بالكلام عن الحب أو الفراق أو الوداع ثم تنتقل إلى الوطن ومعاناته وعذاباته، كما في قصيدة "الوصايا القديمة".

الفيتوري يأخذ الكتاب ويقول:

ـ الحبّ لا ينبثق من الفراغ ولا يعيش في الهواء.. الحب يعيش في الواقع الإنساني الذي نعيشه.. المرأة في حياتي هي جزء متفاعل مع نظام البشرية.

"يومها كانت الشمسُ

مذبوحةً في دمي

وأنا أتقاطرُ نشوانَ بالحزنْ

فوق الطريقْ

انظريني

أنا مَلِكُ الغربةِ المتقاطرِ بالحزنْ

فق ترابِ الطريقْ!..

البلادُ التي أمطرتْ أنجما

وهي تغزلُ أرديةَ الساقطين

بلادي

سَيَّجْتُ تاريخَها بجفوني

وأشعلتُ روحي مِبخرةً

وتقوّستُ أذرعةً

وابتهلتُ إليها

ـ ارجعي يا بلادي.. ارجعي

إنّهم يحملون الجنائزَ والموتَ في دمِهم

يكتبون الوصايا القديمه

في فجواتِ العيون

إنهم ميّتون".

قال:

ـ أتكلّم هنا عن الطُّغاة..

"ـ ارجعي

آه لو لم يُعِدْكِ الصّدى

آه لو لم يُعِدْكِ الصّدى

آه..

واختبأتْ في الضبابِ بلادي

وتغرّبتُ في شفتيها

تغرّبتُ في مقلتيها

تغرّبتُ بين يديها

... وأركضُ بالريحِ والموج

ثم أعود إليها

ـ البلادُ بلادي

فلماذا إذن يُولَدُ الموتُ

في كلّ أغنيةٍ في بلادي

ولماذا قبابُ النبيين والشهداء

مجلَّلةٌ بالسوادِ!!

ولماذا تجوعُ المحاريثُ

في مهرجانِ الحصادِ

لماذا تظلّين أجمل؟

يأخذني النهرُ المُتدفِّقُ منكِ إليّا

تظلّين أجمل في مقلتيّا

أنا الطّائر الأبَديُّ.

الذي تتغنّى به المدنُ النائيات

الذي تتماوجُ فيه الموانئُ والسُّفُنُ الضائعات

لماذا تظلّين أنت الشّهادة والغيب

أنتِ النُّبوءة والشّعر..

أنت هي الأرض والذكريات!

لماذا؟

لماذا؟

لماذا؟

تقولين أنتِ

ويفجؤني السّرُّ

أسقطُ في خَرَسِ الأرض

أسقطُ كالأرض

تحتلُّني كبرياءُ الهزيمهْ".

يقول:

ـ الإشارة هنا إلى هزيمة 67، والأرض التي سقطت هي أرض فلسطين.

"ـ هل أنتِ في جسدي كبرياءُ الهزيمهْ

تثقبُ كلُّ حوافرِهم في عظامي

ـ هل أنتِ كلُّ حوافرهم في عظامي

هل أنتِ دربُ غيابي؟

شمسُ حضوري؟

لونُ اشتعالي؟

سيفُ انتقامي؟

أوّاهُ.. لو كنتُ أعرفُ مَنْ أنتِ؟

يا نُصُباً رائعًا من حطامِ البطولهْ

يا شَفَقًا من عيونِ التوابيت؟

يا وجهَ قِدِّيسةٍ من رخامِ!..“

قال:

ـ المرأة هنا تختلط مع المجتمع مع الحالة الاجتماعية، مع القضيّة.

ـ في كلّ مرحلة من مراحل حياتك قصّة حبّ، وقد كتبت الكثير عن تلك العلاقات، ما الذي تعنيه لك المرآة، وما العلاقة بين الحب والجسد بالنسبة لشاعر مثلك؟.

ـ الجسد ليس هو الهدف بالنسبة إليَّ لأنّه ينطفئ بسرعة، وحتى إذا كانت العلاقة علاقة شهوة فبمجرّد إشباعه تنتهي العلاقة وتموت.. الجسد بالنّسبة لي هو ممرّ إلى الرّوح، والرّوح هي بقدر إشعاعها فيّ وبقدر ما تفرش

لي ضوءًا على المستقبل: مستقبل الكتابة، مستقبل الحياة، مستقبل العلاقات الإنسانية، أمّا الجسد فهو لا يعنيني كثيرًا.

ـ وما زلت حتى الآن تبحث عن امرأة تحبها!!..

ـ أنا لم أتوقف يومًا عن الحبّ... عندما أحبّ، ولقد أحببت كثيرًا لا أجد أن كلّ الحبّ هو الحبّ، ليس كل حب هو الحب..

تختلف المرأة بعطائها وأختلف أنا بعلاقتي معها..

ـ ما الذي تبحث عنه في المرأة؟

ـ إنني أبحث عن الضوء الدّاخليّ، وجهها الجميل يهمّني، جسدها الجميل يهمني، صوتها، أداؤها الإنساني، ولكن فيما وراء هذا كله، هي بالنّسبة إليّ ـ طاقة أرى روحها كيف تضيء، انعكاس ضوئها الروحي على روحي أنا، هو الذي يفجّرني شعرًا. ومن هنا تزداد علاقتي بها ارتباطًا كلما ازدادت هي توهّجًا في داخلي أنا.. هذه العلاقة قد تطول وقد تقصر، قد تضيء الكون، وقد لا تضيء إلاَّ مساحة صغيرة فيّ أنا.

ـ ولكنك تشترط في المرأة التي تتعامل معها أن تكون مثقّفة.

ـ إن التعامل مع المرأة المثقّفة مختلف، لا تهمّني الشّهادة، المهم أن تكون ذات حضور متميز، وأن تكون ذات ألق روحي، وأن تكون متذوّقة للفن وتحب الموسيقى الكلاسيكية..

رغد تقرأ قصيدة (النهر الظامئ):

"أريد أن أعشق.. أن ألمس الأعماق..

أن ألمسَ أعماقي..

أن أعبد الله كما لم أكن أعبده

في عمري الباقي

بي ظمأٌ.. بي ظمأٌ قاتل

فأين ينبوعك.. يا ساقي!

أكاد لا أبصر حيث ارتمت عيناي

إلّا دمَ أشواقي..

أطفئْ بإعصارك هذا اللّظى الأسود

في قلبي وأحداقي

أَطفِئْه إنّي نهر ظامئٌ للحب

في جنّة العشاق.."!

إن هزّت الريشة في أنمل الرسام..

في سكرة إبداعه..

فالصّورة الشّوهاء ما ذنبها

وكيف تشقيني بما لم تكن لي طاقة

في رسم أوضاعه

سئمتُ جدبي في ربيع الهوى

وظلمتني في نور أمتاعه..

وثورتي في ظلّ أحلامه

وصرختي في صخر أسماعه

سئمت ضعفي..

آه للبئر إذا لمْ تطلع الشّمس على قاعه!

وآه لي لو لم يعانق دمي كرمتها..

كرمة أحلامها..

وآه لي لو لم يذوِّب فمي..

هذا الجفاف الضّخم.. في جامِها

ولو تدثّرت بموتي، ولم تلفّني خضرة أيامها

ولم أباركها بصوفيّتي..

ولم تطهّرني بآثامها..

لسوف أحيا في الورى ثائراً

على معانيها.. وأحكامها

مُحتقرًا كلّ نواميسها

حتّى ألوهيّة أصنامها..!"

رغد:

ـ مضطربٌ قَلِقٌ ثائر تريد العشق.. تريد لمس الأعماق، تتمرّد على الرسام الخالق إن تشوّهت الصورة وهو يرسمها..

ـ أنا كذلك دائماً... إنني أريد أن أرى العالم بعيون حادة، تستطيع أن ترصد ظواهره، وأن تتفحص خلاياه وأن تسجل كلّ ما فيه من تناقض، وتشير إلى كل ما فيه من تضاد، وتعرّي كل ما فيه من اختلال وفساد..

ـ أشعر أنّك صاحٍ طوال الوقت حتّى وأنت نائم، أظن أنك لا تنام..

يضحك:

ـ نعم أنا كثير القلق، حتّى في نومي أستيقظ عدة مرات.. أمّا عقلي فصاحٍ دائمًا.

ـ إلَّا في الصباح فكلّما اتّصلتُ بك الساعة العاشرة تكون مستغرقًا في النوم.

ـ لأنني أنام في ساعات الصباح الأولى ولست مثلك أنام في السادسة مساءً.

ـ حسناً ولكنني أستيقظ أيضًا عند السادسة صباحًا وأبدأ عملي مباشرة.. فلنعد إلى القصيدة وإلى غرور الفنان واعتداده بنفسه، يتابع القراءة:

"قالوا: لكَ الفنّ.. ولم يجتمع في كائن قبلك مجدان

والفنُ أشواقُ أُلُوهِيَّةٍ تُولَدُ.. في أعماق إنسان..

والفنُّ أقباسٌ سماويةٌ

والنّاسُ ألعوبةُ فنان

فخَلِّ للفانينَ دنياهم..

فإنّها معرض ألوانِ..

وامشِ بآلامك في عيدهِم

فإنّها آلام رحمان

واحملْ بجنبيك جراحاتهم

وخلّد القسوة في الفاني!

فقلتُ، والرغبةُ في داخلي

عاصفة... ماردة.. عاتيه

يا ليتني راعٍ، عتيق الرّداء..

ذو عصا، مشقوقة، باليه..

شرابه من دمعة الساقيه..

وقوته من مهجة الداليه..

يسوق للغابات أغنامه

وروحه.. كروحِها صافيه

راعٍ له صاحبة ترتجي عودته في اللّيلة الشّاتِيه..

حتى إذا عاد إليها ارتمت في حضنه أدمعَها الهانيه..".

ـ إنّك ترفض الشّقاء والألم في سبيل الفنّ وتتمنّى أن تكون راعيًا يعود في المساء ليجد حبيبته التي تستقبله بأدمعها الهانية.

الفيتوري:

"يا ليتني فراش نحل..

جناحاه على هيكله شعلتان

يعيش في مُنْعَطَفاتِ الشذى

فوق حدود الوهم.. فوق الزمان

ورشفة ترويه.. أو رشفتان

وحسوة تغذوه.. أو حسوتان

حتى إذا عاد إلى عشّه الشمعي في أودية السنديان

خَفّتْ له أُنثاه فرحى

وفوق مقلتيها نبتتْ ضحكتان

يا ليتَ قلبي قلبه ويدي جناحه

وموطني اللّامَكَانْ".

رغد:

ـ إنه البحث عن العشّ الدافئ والرفيقة الحنون، ولكنك بعد هذا خلصتَ إلى أنّ الكائن المبدع ليس شقيًّا بدمامته بل بحساسيته.

ـ نعم، ولكنّ الحساسية كمنبع للقلق يقبلها الفنان كما لو كانت قدره الخاص ونصيبه في الحياة:

"يا خالق الإنسان من طينةٍ

وخالق الفنان من طينه

عذّبتَني بالفنّ..

عذّبتَني بالفنّ..

عذّبتَني بهذه النار السماويّه

لسوف ألقاكَ غداً صارخاً بكلِّ ما فيَّ من اللوعه

لم تُشْقِني دمامتي في الورى

لم تُشقني.. إلَّا حساسيتي

أدعوك لا تُشْقِ بها كائنًا بعدي

فهذه النّار مِن قسمتي..

رضيتُ أن أفنى على وهجِها..

لكي يعيش الفنّ في مهجتي".

ـ إن الموهبة الشّعرية نعمة إلهية ظهرت لديك في سنّ مبكرة.

الفيتوري مقاطعًا:

ـ إذا كانت الموهبة هي نقطة انطلاق الفنّان نحو العطاء، فإن الثقافة وحدها هي ضمان استمرار هذا العطاء ومصدر قوّته وتجدّد أفكاره.

ـ إن موهبتك لم تضعف قوتها مع مرور الزمن بل إنها ظلت متوهّجة ومتميّزة بنفس حدّتها الأولى.

ـ هذا يعود إلى كثرة التجارب والتقلّب في عواصم عربية ودول أوروبية مختلفة.

ـ المعروف أنّك قد أتقنت موسيقى الشّعر دون أن تكون قد تعلمت أصولها، وكذلك قدرتك على تكوين صور شعريّة ذات مستوى بلاغي رفيع وُجِدت دون أن تكون قد اطلَّعت على المذاهب البلاغيّة المتعدّدة وتفريعاتها...

ـ قلت لك إنّها الثقافة، ومحاولاتي المستمرّة في تجريب أشكال متنوعة من القصائد تبعًا لمذاهب أدبيّة مختلفة.

ـ وماذا عن ثقافة الشّاعر بشكل عام وعلاقته بما حوله؟

ـ إنني أرى أن الوعي بحقيقة الأوضاع الاجتماعية، وإدراك التناقضات

والعوامل الديناميكية التي تتفاعل داخل المجتمع الإنسانيّ والمؤثّرات والأحداث التي تحرِّك التاريخ ثقافة ضرورية لا بد منها للشّاعر المعاصر، إنه بغيرها يعزل نفسه عن حركة الحياة.

ـ إن كلامك هذا قد قلتَه شعرًا في بدايتك الفنيّة وردّدته عندما أكّدت أن صناعتك الكلام وقلمك هو سيفك الذي تدافع به عن القضية..

ـ نعم.. في قصيدة (عاشق من أفريقيا)

"صناعتي الكلام

سيفي قلمي

وكلّ ثروتي شعور ونغمْ

ولست أحدًا من أنبياء العصر

لست من فرسانه الذين يحملون راياتِ النضال

أو يخطّون مصائرَ الأُممْ

لكنّ لي هوًى يكبرُ كلّما أكبر

لم أمنحه مرّة لملك مُتَوَّج

ولم أمرّغْ وجنتيه فوق أعتاب صنمْ

صناعتي الكلام

قد أُجيدُ تارةً.. وقد أخطئُ تارة

لكنني منذ مشت عواصفُ الحنين في دمي

ومنذ أزهرت براعمُ الكلام في فمي

ومنذ ما انطلقتُ ضائعًا مُشَرَّدًا

أطوي ليالي غربتي..

وأمتطي خيولَ سأمي

كنتِ عذابي.. أنتِ يا أفريقيا

وكنتِ غربتي التي أعيشها

وشئتُ أن أعيشَها".

ـ أردتَ أن تعيش هذه القصيدة وتأسّفت عندما كان صوتك لا يصل إلى من يجب أن يسمعوه فيتحوّل الكلام في فمك إلى جذوع الشجر القديم يصعب انتزاعه.

الفيتوري:

ـ نعم.. لقد اخترتُ طريقي وهو الدفاع عن الحرية الكرامة وقلمي هو سيفي الذي أقاتلُ فيه ولا أتوانى لحظةً في استخدامه ضدّ أيّ نوع من أنواع الاستغلال والاستبداد.

شوقٌ إلى الكلمة

الفيتوري يقرأ لرغد قصيدة جديدة.. تقول:

ـ رائعة..

تصمت قليلاً ثم تتابع:

ـ أنت تؤمن إيمانًا عميقًا بأنّ الشّعر من ضرورات الحياة بل إنه قوة دافعة لها، ففي قصيدة "الطفل والعاصفة":

"وضحايا تتعذّب مثلي

في شوقٍ.. من أجل الكلمه

الساعة، منتصف الليل

ومع الظلمة يصحو الشّعراء

يسقون نفوساً ميّتة

ويضيئون عيوناً عمياء

ويغنّون لفجرٍ آتٍ

فجر بشريّ الأضواء

ويقولون قصائد شعر

ويطيلون إليها الإصغاء".

الفيتوري:

ـ وأيضاً أؤمن أن الشّعر قدري:

"ها أنا ذا أقول

لو ركضتُ عارياً فهذا قدري

ولو مشيتُ فوق جسرٍ من خطاياي

فهذا قدري

صوتي صوت زمني

وجهي وجه قدري

فلا عجبْ

ولدت فوق عتبات الصمت والغضب

أنا تمرُّد التعب

أنا تجسّد الذهول

ها أنذا أقول..".

ـ سألتكَ يوماً ما أكثر ما يخفيك؟

ـ وأجبتُكِ، وها أنذا أكرّر، أخاف أن أَصلَ إلى يوم لا أستطيع فيه الكتابة.. يومها سيكون موتي الأكيد..

رغد تقلب صفحات الديوان تفتحه على قصيدة "اعترافات" تقول:

ـ في القصيدة إحساس بعظم المصيبة، مصيبة الشّاعر الذي يعتبر نفسه شَفَتَيْ بلاده وعينيها كيف لا يستطيع أن يعبر عن آلامها.

يهزّ رأسه ويتناول القصيدة ويعانقها بعينيه كأب حنون يعانق ابنه بعد طول غياب يقرأ:

"الدَّربُ كثعبانِ ينزلقُ خلال الغابه

كسحاب أسود يتراكضُ خلف الظّلمه

لا خفق جناح.. لا رعشة نجمه

لا شيء لكي أكتب كلمه

فالكلمةُ في شفةِ الله

والله على الأرض سجين..

لا شيء..

ويتجهّمُ حزني

ويغطّيني عرقُ الموتى

وأحسّ بشيء مصلوب

ينزعُ أطرافي المصلوبه

ويغوصُ بصدري كالكسين.

(ـ دع المقاديرَ تجري في أعنّتِها

ولا تبيتينَّ إلَّا خاليَ البال)

ويحي مِن هول الأكذوبه

ويحي.. وأنا شفتا شعبي.. أنا عيناه

كيف تناسيتُ ضحاياه

وأنا أعشاب لولاه

أنا لولاه طين ودخان

إني أنزفُ خجلاً

إني أخفضُ هذا الرّأس العالي عارا

لو لم أكتب شيئًا

لو لم أنفضْ عنّي هذا اللا شيء

يا أبناءَ القرن العشرين

النّصف المنتصر الآتي

المتحرّر من ظلِّ الخوف

القادم من شرفات الغد

ولو أنّي لم أركم..

لم أبصرْ أوجهَكُمْ..

إلَّا أني أسمعُ وقع خطاكم عن بعد

يا إخواني

إني أحملُ كل خطيئة عصري

فـأنا شاعر

أظلم عينيه بريق العصر".

رغد:

ـ أنت تعترف الآن أن الشّاعر هو شاهد زور على عصره وما فيه من كذب ونفاق..

الفيتوري:

"يا إخواني..

كنتُ أراهم يمشون ملايين إلى الموت

يحتضرون لدى كلّ مسيحْ

يجرون جموعاً خلف الريح

وأنا أغمضُ عيني

أكسرُ سيفي

أكسرُ سيفي

أطرق..

أحضنُ عاري في صمت

الدّينُ عذاب

الفنُّ عذاب

الصّمتُ عذاب

وأنا شاعر

ماذا أملك إلَّا أن أجْتَرَّ عذابات الناس

أرثي الأموات، وأبكيهم

(مات فلان يرحمه الله

كان يفيض حياه.ز

كانت عيناهُ طيّبتين بغير ألم

كانت قدماه حافيتين بلون الدم

ما مشتا يوماً لخطيئه

يرحمه الله..)

وأنا شاعر

أعلم أن فلاناً يرحمه الله

مات كما عاش بغير ثمن

يحلم بالجنة، وهي وطن

دميت فوق الأشواكِ خطاه

(يرحمه الله)

لو كان يطّرني النسيان

لو أني أحملُ في صدري حجراً

لو أنّ الشيءَ الخافقَ في صدري قطعةَ فولاذ

لنسيتُ

لمزّقتُ الصفحاتِ السود

* * *

لو كان يطهّرُني الغفران

لَبكيتُ

ولكني شاعر

أظلم عينيه بريقُ العصر".

ـ أنتَ، ومعك الحق، تتألم لتحوّل الشّاعر إلى شاهر زور، ولكنك تعلم وتؤكّد أن الشّاعر أيضاً هو الباعث لشعبه من سجون البلى، وأن هتافه لا يذهب سدًين فهذه قصيدة "عودة نبي" التي كتبتها في ذكرى الشّابي تحمل كلّ معاني الوفاء للدّور العظيم الذي قام به الشّاعر..

ـ إن ما بناه الشّاب لهو بناء عظيم.. لقد بنى للحرية عرشًا، لقد بقي الشابي نبيًّا كما الأنبياء حملة الرسالات السّماوية..

"حَسْبَكَ من فنّكَ هذا الخلود

يا أيها الشّادي بسحرِ الوجود

بعثتَ شعبًا من سجونِ البلى

وأمّة ترسفُ تحت القيود

سكبتَ لحن الفجر في قلبها الصّادي

فأرعشت دجاها المشيد..

واغرورقتْ بالشوق أعماقُها

واخضوضرتْ أحلامُها من جديد

واستيقظ الماضي البعيد المدى

وانتفضت حتّى عظامُ الجدود

فاسمعْ برغم الموت أصواتَها

مختلطات باللّظى والحديد

وشُقَّ صدرَ القبر..

واعقد لها من شِعرِكَ الخالدِ أسمى نشيد

فصرخةُ الإيمانِ أقوى من الموت

وأبقى من ترابِ اللُّحود..

يا أيّها الذّاهلُ في حلمه..

يجذبُ عينيه الفضاءُ البعيد

أقسمت ما ضاعَ هُتافي سدى

لكنّه هزَّ ثراكَ المجيد..

كأنّني أسمع شبّابة

حنينها الجارف يطوي الحدود

كأنني أبصر ذا غربة..

يودُّ من غربته أن يعود!

يا معجزَ الأرض بفنِّ السماء

ومعجزَ الموتِ بسرِّ الخلود..

كم زحزحتْ كفّاكَ من صخرةٍ

سدَّتْ على الفجر طريقَ الصعود

وكم مشت روحُك في هوّة

صباحُها خلفَ الزّوايا طريد

وكم حضنتَ الشّوكَ..

مستغرقاً في فكرة مملوءة بالورود

وعشت كالمنبوذ..

في أمّة هَدَّت قواها مومياء الجمود

ومتّ.. لكن الذي لم يمت

هذا البناء الضّخم.. هذا القصيد

شِعرٌ كأشواقَك يغزو السّماء امتداده

كالسّنديان العتيد..

شعرٌ تمزّقتْ عليه..

كما تمزّقتْ فوق السّحابِ الرعود

وانتبهتْ تونسُ مذعورة

مع انتفاضات الصّباح الوليد

انتبهتْ تبحثُ عن نفسها.. عنه

عن الشّادي الحزين الشّريد

واستيقظت أعماقُ أفريقيا..

تغسلُ بالنّور خطايا الجدود..

وانطلق الماردُ من سجنه

تسحقُ رِجلاه بقايا السّدود

وعدتَ يا شابيُّ حريّة..

ثائرةً ملء ضلوع العبيد

وعدت عزمًا في وجوه الأسى

ويقظة ملء عيون الرّقود

وعدتَ يا شابي في ناظر الأعمى

وفي قلب الأصمِّ القعيد

عدتَ نبياً كالنبيين..

لو تدرك معناكَ عقولُ الوجود!».

في القصيدة تبدو رغبتك في مواصلة واستكمال الدور الذي قام به الشابي، وصورة "عدت يا شابي حرية ثائرة ملء ضلوع العبيد" هي قرار

منك بولوج العالم الأفريقي.

ـ الشّعر عالم قائم بذاته، إنه رؤًى نبويّات لا بدّ من وجود من يكشف عنها اللثام..

"يا أميرَ الشّعر..

والشّعر رؤًى نبويّاتٌ عليهنّ لثامُ

واقفٌ منكَ أنا في حضرةٍ

هي كالبحرِ اصطخابٌ وارتطامُ

كلّما جئتُ كستني رهبةٌ

فأنا صمتٌ خجولٌ.. واحتشامُ

أدُنُوٌّ منكَ.. والدربُ ازدحامُ

وتناءٍ عنك.. والشوقُ التحامُ

مثلنا السّفن الغريباتُ..

إذا الريحُ جدران على الأفق ضخامُ

وتصايحنا..

ولكن الرُّؤى انطفأت

وانهار في الصَّمت الكلامُ".

رغد:

ـ هذا المقطع من قصيدة "إلى الأخطل الصغير"، إنها رائعة..

ولادة القصيدة

في المقهى البحريّ، رغد تقلّب بعض الأوراق، والشّاعر يسبح بنظراته بعيدًا.

رغد:

ـ ما هي الحالة التي تولد فيها القصيدة عندك؟

ـ كيف يمكنني أن أصف، بل أن أحلّلَ حالة تركيبية بالغة التعقيد والتداخل، دائمة التجدّد والتغيير، لأنّها نادراً ما تكرّر نفسها ونادراً ما تتكرّر حتى بالنسبة للفنان نفسه...

ـ هل هناك قصيدة تتعبك حتى تظهر؟

ـ إن عملية الخلق الفنيّ، عملية خفيّة، إنها عملية انشطار الإنسان شطرين.. حالة صراع داخلية يسقط ضحية لها، في أغلب الأحيان، وجود الفنان الصّناعيّ الخارجيّ ليرتفع فوق أشلائه، ذلك الوجود الحقيقي الآخر الكامن أبداً فيه.

ربّما استطعت أن أقول، إنني أعيش تجربتي حتى إذا نضجت أخذت أُصَعِّدَها مرة أخرى لأصوغها كلمات على الورق ولكنّ عملية الخلق الفنيّ ذاتها ليست سهلة أبداً..

إن الرّعشة المقدّسة التي تأخذ الفنان حينذاك يستحيل التعبير عنها إلَّا ضمنياً ضمن هذا المزيج النفسي الموسيقيّ الفكري الذي يسمّى بالقصيدة الشّعرية.

ـ لقد رأيتُ بعض قصائدك تتحوّل تحوّلاً كبيرًا عما تكون عليه في الكتابة الأولى؟

ـ أنا أدوّن الفكرة مباشرة لأنني إذا أهملتها ذهبت، ثم أقوم بعمل تعديلات على القصيدة، وقد تتغير بي المشاعر فيتغيَّر منحى القصيدة.

ـ كقصيدة (إطلالة) مثلاً.

ـ نعم.. لقد عرفتِ القصيدة منذ ولادتِها ثم كيف تحوّلت..

ـ حسناً سأقرأ لكَ النصّ الأوليّ القديم:

"لكي لا تسودَ الدّمامةُ أكثرْ.

لكي لا تحلّق أغربةُ العصر..

في حدقات العيون وتكبرْ

أَضِئْ شمعةَ الحقّ

ما بين عينيك

وامشِ بها وَسَطَ الناس

يشتعلُ النورُ في الناس

والحبّ في رَحِمِ الأرضِ يُزْهِرْ!".

ـ نعم.. لقد تغيّرت كثيرًا

"لكيلا تخون العصافيرُ أعشاشها

وتسود الدّمامة في الأرض أكثر

لكيلا تحلّق أغربةُ العصر فوق السقوف

وتُولَدُ في الفجوات وتكبرْ

أضِئْ مُقلتيك الرّماديتين برؤيا الجمال

وضعْ ياسمينة قلبك في شفتيك

وسِرْ عاشقًا وسط النّاس

يشتعل النّور في الناس

والحبُّ يجترحُ المعجزات ويزهر!"

ـ في القصيدة إشعاع غريب ودعوة متفائلة للحب الذي يجترح المعجزات..

ـ تعلمين، لقد اختلفت الآن أساليب اقترابي من العمل الشّعري

عما كانت عليه في بداياتي، كنت قديماً أجد نفسي متفجّراً بمعاناة، طامحاً لتجسيدها بغَضِّ النظر عن الكيفية التي تنصبّ فيها تلك المعاناة.

ـ كنتَ تحاول تطهير نفسك ممّا ورثته من عذابات..

ـ نعم.. أما اليوم، فإنّني أكتب بعد أن أكون قد خطّطت وأعددت قائمة نفسيّة بما أريد أن أقوله، إنني أكتب شعري حين أريد أن أكتب، لا أخضع لما يسمونه بالإلهام الشّعري، إن لديَّ رصيداً موروثًا على مستوى الإيقاع والفكر يمكّنني من قول ما أقوله لآخرين لا تبقى أمامي إلَّا الكيفيّة بها سأقول.

ـ أنت إذًا تضع فكرة البذرة بكلّ وعي!

ـ نعم.. هذا صحيح إنني أضع فكرة البذرة بكل وعي، سياسية كانت أم اجتماعية، ثم أنتظر بعض الوقت حتى تزدهر فيّ كما هي في باطن الأرض، لتبدأ تتشقّق في داخلي وتشقّني في نفس الوقت، ثم تبرز شيئاً فشيئاً حتى تأخذ شكلها الخارجي الذي سوف تواجه به الآخرين.

ـ تقصد حتى تلبسَ جسدها الإيقاعي الذي يفرض ذاته عليها؟

ـ نعم، إنني أختارأفكاري، ولكنني لا أستطيع اختيار موسيقايَ وأنغامي، إيقاعاتي هي التي تختارني.

ـ الفكرة والشكل أو الأسلوب، لمن الفضل في إبداع شاعر ما برأيك وتفوّقه على الآخرين؟.

ـ إن الأصالة هي أصالة الفكر، أصالة العاطفة، أصالة الإبداع، وفي هذا السّياق، فإنني أستطيع أن أقول إن الأسلوب الفنيّ الجيّد أو الصّياغة

الموسيقية الدقيقة لن تستطيع رغم جودتها ودقّتها أن تخلق للفكر السّطحيّ أو الفكر المسروق أجنحة بها في آفاق الحياة.

ـ ولهذا يسقط الكثيرون ممن يدّعون الشّعر؟

ـ إن سقوط كثير من النماذج الشّعرية المعاصرة، بل إن سببًا رئيسيًّا من أسباب انهيار شعرنا الحديث، مرجعه إلى الضحالة الفكريّة والنّفسيّة المُتَرسّبة وراء هذا الشّعر.

ـ إن هذه الضّحالة الفكريّة لم تلحق الشّعر فقط بل لحقت كلّ أنواع الفنون، اسمع.. تفتح الراديو وتقلّب المحطات ثم تغلقه...

ـ الأغنيات والأصوات متشابهة، والكلمات نفسها تتردّد..

ـ لم يعد هناك عباقرة في الفن بأنواعه، والمؤسف حقًّا هو الهجوم على التراث القديم كلّه ومحاولة تقليد الغرب بقصد الحداثة.

ـ من الضروري التعامل مع التراث بوعي وإحساس جديدين، نستطيع أن نلمس في ضوئهما أصالة جهد الشّاعر المُبدع، حتى في مدائحه أو غزلياته أو هجائياته أو بكائياته، أو مواجده الصوفية أو تأملاته. وأنه كان ينجز إسهاماً حضارياً فاعلاً ومؤثراً في حياى أمته وفي إنضاج شخصيتها وإدراكها لمعنى وجودها ولعلاقاتها بالله وبالكون من حولها ولمسيرتها الممتدّة في أحشاء المستقبل.

رغد:

ـ الحداثة ليست رفضًا للذّات، بل إن كلّ حداثة غير مصبوغة بالأصالة

هي حداثة باهتة.

ـ رأيـي أنه لا جديد ولا قديم في الشّعر، الجديد فقط هو الرؤية الإنسانية للواقع الاجتماعي المتغيّر، وبدون الاتحاد الكامل بين عنصري الإيقاع والشكل، الرمز والصورة، الرّوح والجسد، تفقد الكلمة الشّعرية فعاليتها وقدرتها على أن تتحوّل إلى ميراث.

ـ ولكن ألستَ معي أنّ الشّعر العربي قد فقد مكانته الأثيرة لدى الجمهور؟

ـ إنّها يا عزيزتي أزمة أمة، قبل أن تكون أزمة إبداع، أزمة حضارة قبل أن تكون أزمة تيار شعري...

بالفعل.. لقد بدأ الشّعر العربي يفقد مكانته الأثيرة لدى جمهوره التقليدي منذ بدايات هذا القرن، بل منذ رضخ الشارع مهما كانت بواعث هذا الرضوخ لمنطق متطلّبات العصر، الذي قضى بإحداث القطيعة بينه وبين الهموم الحقيقية التي يضطرب فيها الناس والمجتمع.

ـ إنّها علاقة جدلية بين الشّاعر وبيئته.

الفيتوري:

ـ الشّعر هو عمل فني جادّ، فكر أساسي وحوار جمالي بين الشّاعر والجمهور، ليس هناك شعر حقيقي دون موقف اجتماعي، إن الشّاعر هو ابن بيئته ومجتمعه الذي هو مزيج من التفاعلات السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة.

الأسلوب هو الشّخصيّة

في مقهى "السيتي كافيه" في شارع الحمراء، وحيث تعوّد الفيتوري لقاء الأصدقاء ربما يومياً.. تقول رغد:

ـ انقطعت فترة عن كتابة الشّعر؟..

ـ لقد عملت بالصحافة، رأست تحرير أكثر من جريدة يومية ومجلة أسبوعية، وخضت غمار أكثر من تجربة سياسية واجتماعية، ثم استيقظت فجأة فوجدتني أحرث ـ كما يقولون ـ في البحر، بلا شجرة، بلا حياة، بلا شيء.. اللَّهم إلَّا عزاء قديمن كنت ألمحه في ديواني الأول.. اجتاحني شعور طاغ بالعذاب والقلق واللامبالاة.. وترددت الأسئلة في ذهني تعذّبني.. هل حقيقى أن الشّاعر الذي كنت أنا هو قد مات؟!!

ومن جديد بدأت أسترجع صوتي بحثاً عن وجودي الضائع.. هذا الوجود الذي لا أعرف له معنى إلَّا بالشّعر.

ـ هل كان انقطاعك عن الكتابة سببه تردّدك بين الشكلين القديم والحديث، مما أفقدك الحماس الفني وأصابك بالركود؟..

ـ ربما كان هذا صحيحاً، ولكنني وانطلاقاً من تجربتي الخاصة في كتابة الشّعر، ومتابعتي المستمرة لواقعنا الشّعري المعاصر، أستطيع القول إنني توصلت إلى قناعة كاملة بأنه لا بد للشاع أن يكون له دوره الاجتماعي

الثوري، أي إنني أرفض كافة النزعات الشّعرية التي تفقد الشّعر فعاليته وتحول دون تحقيقه غايته الاجتماعية الثورية التي أشرت إليها. وهذا الرفض يافقه رفضي القاطع للأشكال والصيغ الكلاسيكية المتحجرة التي سيطرت على مسيرة الشّعر العربي زمناً طويلاً.

ـ على كلّ، إن الحداثة المطلوبة ليست تجريباً خارجياً في اللغة أو شكل القصيدة، إنما هي ما يتعدَّى اللعب بالألفاظ والعبارات ظاهرياً إلى اندماج في التجربة ووعي لها.

الحداثة المطلوبة هي تلك التي تهدّ مفاهيم الخنوع والذل على كل الصعد لتبني عالماً يافعاً ربيعياً أكثر جمالاً وإشراقاً في المفردات والأدوات.

ـ هذا صحيح... وللشعر العربي الجديد إيجابيات كثيرة في هذا المجال، وفي تقديري أنه نتيجة تحطيم الشكل القديم استطاع أن يحرر فكره الاجتماعي من سيادة الأفكار القديمة الجامدة، وأصبح قادراً على التعبير عن قضايا الحرية والتغيير الاجتماعي.

ـ هذا الاتجاه الشّعري الجديد استطاع أن يعبّر أيضاً من خلال الإيقاعات الموسيقية والمسافات الصوتية.

ـ لأنه يملك حرية أكب في التشكيل والتنوع وإثراء العمل الشّعري وبالتالي إخصاب الوجدان.. وكذلك فإن هذا الاتجاه جعل الطّاقة الشّعرية لدى الشّاعر أكثر تفجراً، مع قدرة أكبر على التكثيف والتركيز.

ـ وبالنّسبة إلى الصورة الشّعرية؟؟

ـ لقد ارتفع الشّعر العربي الجديد بقيمة الصورة الشّعرية فانتقل بها من مجرد زينة زخرفية، إلى كونها الخلية الحية المتحرِّكة البنَّاءة في تكوين العمل الشّعري.

ـ من الملاحظ قدرتك الكبيرة على التجسيد والتصوير وإبراز القسمات ذات الطابع المتكامل إلى حد كبير، حيث لا يقف عند حدود الجزء بل يمتد فيشمل القصيدة كلها.

ـ بدون الاتحاد الكامل بين عنصري الإيقاع والشكل، الرمز والصورة، الروح والجسد تفقد الكلمة الشّعرية فعاليتها وقدرتها على أن تتحوّل إلى ميراث.

ـ يقول توفيق الحكيم في كتابه فن الأدب: "يقول الشّعر: أنا لا أريد أن أريكم واقع الأشياء في حقيقتها المادية، فهذا من شأن العلم، ولكنني أريد بضوئي أن أطرق أبواب تفكيركم ومشاعركم وأنمي فيكم ملكة التخيل والتأمّل وأجعلكم تعيشون حياتين: حياة الواقع الأرضي وحياة الفكر".

ـ صحيح، فالصور مهما بلغ جمالها ومهما كانت مطابقتها للواقع ومهما عبّر عنها الشّاعر بدقة ليست وحدها الشيء الذي يميِّز الشّاعر الصادق، وإنما تصبح الصور معياراً للعبقرية حين يضفي عليها الشّاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية.

ـ الملاحظ في شعرك القدرة الفائقة على تكوين صورة مبتكرة ورسم لوحة متكاملة في مقطع واحد، واستخدامك مجموعة من الصور المتجاورة والمتتالية التي يكوّن مجموعها ما ترمي إليه، كما في قصيدة (تحت الأمطار) مثلاً..

تناوله الكتاب يأخذه ويقول:

ـ نعم.. إنها صورة مكوّنة من مجموعة مشاهد، وقد حدث هذا المشهد أمام بالضبط فأحسست يومها ببكائها.. حقاً لقد كانت الخيول تبكي..

"(أيها السائق

رِفقاً بالخيول المتعبه!

قفْ..

فقد أدمى حديدُ السرجِ لحمَ الرقبه

قفْ..

فإن الدّربَ في ناظرة الخيل اشتبه

هكذا كان يغنّي الموتُ حول العربه

وهي تهوي تحت أمطار الدجى مضطربه!

غير أنَّ السائقَ الأسودَ ذا الوجه النحيل

جذب المعطفَ في يأس

على الجسمِ العليل..

ورمى الدربَ بها يشبهُ أنوارَ الأفول

ثمّ غنَّى سوطُه الباكي

على ظهر الخيول..

فتلَوّتْ..

وتهاوتْ..

ثمّ سارت في ذهول!".

ـ أساليب عدة تستخدمها عند خلق صوركَ الشّعريّة، فأنتَ أحيانًا تخلع على الجماد طابع الحياة، أو تضفي على الأحياء خصائص الموت أو تعطيها لوناً حيث لا مكان في العادة لقبول اللّون (القمر الميت، الدُّجى الأبنوسي، الشتاء الرّمادي).

وقد تستخدم المضاف والمضاف إليه ولكن في الغالب بشكل يفاجئ القارئ.

(أصابع الظّلماء، جناح الشّهداء، كتب الغيب، وجوه الدخان)

من أين تستمد صورك الشّعرية؟...

ـ ربما هي بقايا صور في عقلي الداخلي من الحياة الأفريقية وحيواناتها وطيورها ودقات طبولها، وربما من المفردات الكونية التي تتجاوز حوائط المدن وأسقف العمارات الإسمنتيّة لتغترف مباشرة من البحر والجبل والقمر والسماء والنجوم..

ـ وأيضًا من عالم التصوّف الذي عشتَه في طفولتك..

ـ هي مجموعة مؤثرات تخلق لدى الشّاعر صوره.

ـ كما يقول توفيق الحكيم "الشّعر ليس تصوير للحياة، بل إنه انعكاس الحياة على نفس الشّاعر.. فالشّاعر مثل القمر لا يعطينا الحياى في أشعتها المحرقة ووهجها الذي يعمي البصر، ولكنه يتلقّى بعض أشعتها المحرقة ووهجها الذي يعمي البصر، ولكنه يتلقّى بعض أشعتها ويضفيها من خلال نفسه ويعرضها علينا بعد ذلك ضوءاً جميلاً منظماً مهذّباً ترتاح له العين يسبح فيه الذهن ويأنس له القلب".

ـ صحيح.. إن التصوير الفني لا يهدف إلى تقديم هياكل خالية من الروح وإنما يتميّز بأنه موظف لنقل شحنة شعورية تستمد ينابيعها من روح الشّاعر التي هي في نفس الوقت روح الجماهير.

ـ يبقى أن أسلوب الشّاعر هو شخصيته وهو كملامحه لا يمكن أن يغيرها أو يبدلها.

ـ وهذا ما يسمّى بالضبط الابتكار في الفن والأدب، أن يكون للأديب شخصية مميزة وأسلوب خاص به يميزه من بين مئات غيره.

رحلة من الشّعر العموديّ إلى الشّعر الحرّ

يقدّم الفيتوري كتاباً صغيرًا لرغد ويقول لها:

ـ اقرئي هذا الشّعر وأعطيني رأيك.

ـ أنت تعرف رأيـي بالشّعر الحديث مسبقًا.. على كلّ حال سأقرؤه ريثما تنهي عملك.

بعد نصف ساعة، تنهي رغد قراءة الكتاب وتقول:

ـ ثمّة شعراء حديثون يعتقدون أنهم بلغوا الغاية بنبذ النمط العمودي في القصيدة وبتفجيرالشكل؟

ـ الحداثة يا عزيزتي ليست ثوباً جديداً لا قناعاً مستعاراً.. إنها الجسد كلّه، الحداثة ليست رفضاً للذات، إنها اكتشاف الطبقة الأعمق فيها.

ـ أنتَ قد كتبت القصيدة العمودية، وكنت وما زلت متمكناً منها غاية التمكّن ومسيطراً على أدوات هذا النمط الصعب، واخترت البحور الصعبة والقوافي غير المطروقة.

ـ نعم، لقد كتبت القصيدة العمودية ولكنني حمّلتها مختلف المضامين الحديثة، وخرجت بها من الفراغ الفكري والجمود.

ـ ولكنك الآن تكتب شعرك بالشكل المقطعي المنطلق.

ـ الشّعر الحرّ عندي ينبع تلقائياً من نموذج الشّعر العمودي، فهو يتمتع بموسيقى الوزن التي تستجيب لمضمون القصيدة.

ـ والقوافي عندك غير غائبة تماماً، فهي تظهر بين الفينة والفينة لتحدث إيقاعاً متناسقاً يجعل من القصيدة قطعة موسيقية متميزة، مثل قصيدة "أغنية موت قصيرة"، فقد جمعت في هذه القصيدة بين الشّعر العمودي كما في المقطع الثالث فهو على بحر الكامل الأحذّ، وشعر التفعيلة ـ تفعيلة الكامل ـ في بقية القصيدة، دون التحلّل من القافية، والرجوع إليها دائماً.

الفيتوري يقرأ القصيدة:

"وتهادت الغربهْ

عرجاءَ تبكيني وتضحكني

وتريق ألواني.. وتغزلني

ليلاً خريفياً بلا لون

ليلاً عجوزاً طاعنَ السّنّ

يعدو بخيمتهِ ويحملني

❋ ❋ ❋

ورأيت بوماتٍ وأغربةً

تصطفُّ عبر مداخلِ المدنِ

عمياء ترمقني

حيناً وتنقرني

وتظلّ تنقرني

وأنا أطلّ عليك..

غائرة القدمين والعينين في بدني

كالجذعِ كالحربَهْ

في غايتي المنسية الرطبهْ

وصرختُ حين تلوّت الغربَهْ

وصرختُ حين تلوّت الغربَهْ

بي.. في ضفائر شعرها الوثني

يا أول الدنيا وآخرها

لولا هواك لَمِتُّ في وطني!..

* * *

أَوَ أنتِ تلك؟ كأنّ زنبقةُ

حجريّةً نبتتْ على دربي

وحملتُها يوماَ لأزرعَها

ما بين مجرى الماء والعشب

فتجعّدتْ، وحنوتُ ثانيةً

فزرعتُها في مخدعي الرطبِ

لكنها انفرطتْ

ولو صبرتْ..

لزرعتُها كالشمسِ في قلبي

* * *

أَو أنتِ تلك المرأة الذئبهْ

مرحى إذن بالموت في الغربة"

الفتيوري:

ـ ولكنك لم تعطيني رأيكِ بالكتاب؟

ـ ما دام الفراغ الفكري موجوداً فلا داعي لإبداء الرأي ببعض الكلمات التي تصطفُّ بعشوائية وتطلق على نفسها اسم الشّعر.

بين الشّعر والمسرح

بينما هما يتناولان طعام الغداء، تقلّب رغد صفحات مسرحية "يوسف بن تاشفين" وتقول له:

ـ رغم أن المسرحية جميلة وتحمل أفكاراً وآراء وتوجهات تنطبق على زمننا الحالي وعلى كلّ زمان، لكنها لم تنتشر بين الناس كما انتشر شعرك ولم تأخذ حقَّها ن النقد؟.

ـ في مسرحياتي حاولت التعبير عن أفكار وتجارب معينة لكنها لم تصل ما أردت لها، ربما لأنّ الأشخاص الذين تناولتهم واتّخذتهم محوراً لعملي الشّعري ليسوا معروفين لدى الجماهير العربية، رغم أنهم كانوا فاعلين في مجتمعهم وفي أزمانهم..

ـ مثل يوسف بن تاشفين وعمر المختار.

ـ يوسف بن تاشفين هو أول من رفع راية المغرب الكبير، وَحَّدَها، وهو الذي وضع أساس مدينة مراكش وأقام دولة المرابطين (الملّثمين) في بدايات القرن الثاني عشر.

ـ في طيّات هذه المسرحية نلمح الظروف الصعبة التي يعيشها الوطن العربي الآن، ونلمح بين السطور مخاوف الإنسان العربي من أن يكون الحاكم القادم نسخة مكرّرة عن سواه..

فتحت الكتاب على صوت الشّاعر يترنّم:

"مما يزهّدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسدِ".

ـ للشاعر في المسرحية دور فاعل ومؤثّر رغم أنه دورٌ قصير، فهو الذي ينبّه الناس وهو الذي يقف بالكلمة في وجه السلطة ويتنبأ بالمستقبل.

ـ يقول الشّاعر في المسرحية:

"إنني شاعر وشهادتي عليكم إدانة قاطعة، أؤكد لكم أنني سأقاتلكم بعد موتي".

الفيتوري:

ـ ويقول الشّاعر في المسرحية أيضاً:

"سأعترف بأني لم أدخل أصابعي في عيونكم كما ينبغي".

رغد:

ـ هل هو ندم الشّاعر لأنه لم يقل الحقيقة مجرّدة ومباشرة إلى الحكام؟

وهل في هذا دعوة إلى شعرائنا اليوم بصراحة أكبر وصدق أكبر..

ـ بكلّ أسف، وصلنا إلى يوم لا نستطيع فيه المواجهة، نحاول تزيين الواقع واللفّ حول الحقيقة.. ولكن في بعض الأحيان يهرب الشّاعر إلى المسرح فهو التعبير الصادق المبشار أو الرمزي عن حقائق العواطف والمشاعر الإنسانية المتناقضة الرضى أول الغضب، الحقد أو الطموح، الحب أو الكراهية، الخوف أو الاقتحام، الخيانة أو الشرف، الثقة أو الاتهام.. ولأنني أردت خفية ما لم أستطع قوله علناً حول رمز في واقعنا الرسمي، لجأت إلى المسرح.

ـ خوفاً من الانتقام؟.

ـ بل خشيةَ أن أكون قد أخطأت في تقديري.

ـ لكنكَ تركّز أحياناً على شخصية معينة داخل العمل المسرحي مثل (سولارا)، و(عمر المختار) و(يوسف بن تاشفين)، فهل ترى دائماً ضرورة وجود شخصية محدّدة تريد أن ترمز إليها من خلال هذا التناقض والتفاعل والمواقف العديدة التي تموج في شخصيات العمل المسرحي؟.

ـ تماماً، هذا هو ما أعنيه، أو ما قصدت أن أعنيه في باقة أعمال المسرحية.. ألا توافقينني على أن مجتمعاتنا العربية السياسية الراهنة مفعمى بالعديد من الشخصيات ذات الوجوه المختلفة والمواقف المختلفة والرؤى المختلفة.. هل أزيد فأقول لك إ من بين مَنْ يبسطون ظلالهم في هذه المرحلة رجالاً أبسط ما يمكن أن يوصفوا به أنهم طغاة وديكتاتوريون وشخصيات عفا عليها الزمن.

ـ هذا ما تقوله في آخر مسرحية (يوسف بن تاشفين) من خلال حوار بين الناس بعد موته:

"ـ هم يجيئون بنفس الطريقة، وبنفس الطريقة يذهبون.

ـ كان عظيماً، بفضل جهاده ارتفعت راية المغرب الكبير.

ـ لم يكن كما رجونا، فلقد نصَّب آله وأقرباءه هنا وهناك.

ـ إنه مثلم مَنْ سبقوه.. ومثل مَنْ سيأتون بعده..

ـ زجّ بنا في حروب عقيمة، لكي يضيف اسمه إلى قائمة القوّاد العظام".

ـ أليس هذا ما نعيشه اليوم؟!..

رغد تهزّ رأسها موافقةً وتقول:

ـ لنعد إلى المسرح.. إلى أي مدرسة ينتمي مسرحك؟.

ـ في بداياتي الشّعرية، أقصد في نهايات الأربعينات، كنت ما زلت في مدينة الإسكندرية، امتدت يداي صدفة إلى مكتبة أبي فعثرتُ على مسرحيتي أحمد شوقي (مصرع كليوباترا) و(مجنون ليلى)، استغرقت في قراءتهما، وقد أكون محقاً إذاقلت لك غنني وجدت حينذاك صوتاً جديداً بل مجموعة أصوات تتحاور وتتنافر وتتناقض في نفس الوقت ممثّلةً في مجموعة الشخصيات المختلفة التي تتحرك في فضاء العمل المسرحي، وتمنيت حينذاك، أن تـتاح لي الفرصة لكتابة مثل هذا الذي قرأته، وبالفعل شرعت في تقليد ما قعت عليه يداي، فكتبت مسرحية تحت عنوان (غرام الأميرة) مسرحية شعرية، كانت مستوحاة من حياة أميرة من التتار عُذِّبَتْ لأنها عشقت وخالفت

تقاليد مجتمعها، ثم أحرقتها بعد حين عندما وجدت أنني لم أستطع أن أقول ما يجب أن أقوله عند اللجوء إلى العمل المسرحي.

وهكذا توقفت أحلامي المسرحية وعدت أبحث في ذاتي عن ذاتي كشاعر فكتبت (أغاني أفريقيا) التي تلتها فيما بعد أعمالي الأفريقية الأخرى.

ـ لكنك عدتَ لكتابة المسرح.

ـ في الستينات من هذا القرن كان لي موعد آخر مع كتاباتي المسرحية، وربما في ضوء مسرحيّ أشدّ إبهاراً، حيث كنت قد درست دراسة أكاديمية علم البناء الدرامي، ومن ثم اريخ كبار كتاب وشعراء المسرح منذ بداياته الإغريقية حتى نهايات القرن التاسع عشر. وهكذا كتبت مسرحيتي (سولارا، وثورة عمر المختار)، ثم بعد فترة المرحيتين الأخيرتين (يوسف بن تاشفين، والشّاعر واللعبة).

ـ (الشّاعر واللعبة) كوميديا سوداء كما سمّيتَها، إنها قاتمة كقتامة الواقع الذي نعيشه والذي نحاول أن نزيّنه بابتسامات وسخريات لاذعة، أتعرف عندما قرأت المسرحية أحسست بالاختناق وبأنني أكاد لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي.. الظروف اتي نعيشها قاسية طبعاً، ولكنك كنتَ كمن ينكأ جرحاً.

ـ أنا آسف فعلاً إن كنت قاسياً ومباشِراً في هذه المسرحية، ولكن أليس هو الواقع الذي نعيشهن ألم يسقط الكثيرون في اللعبة، ألم يقبل الآخرون مبدأ المساومة، ألم يرضخ الباقون؟!

رغد تقرأ:

ـ "أولم أقل لكم.. إنها نفس اللعبة القديمة.. الأشكال تتغير والأدوار ثابتة.. والوطن هو المأساة، والمأساة فيكم أنتم... مثلما كنتم تجلسون في مقاعدكم، ودائماً تطأطئون رؤوسكم، وتهزّونها في عجز وانكسار.. يا إلهي.. أو لم تعرفوا بعد أنهم يستندون إلى أحزانكم فيصبحون أقوياء، ثم يتسلطون عليكم.. وأنهم ينسون أنهم خرجوا من بطونكم.. وتنسون أنتم.. وتأكل المسافات وجوهكم وأصواتكم وتبتلعكم رمال الأزمات.. اسألوا أنفسكم ولو مرة واحدة، لماذا أنتم محاصرون هكذا؟ ولماذايتحتم عليكم هذا الغياب أنتم الذين رفعتم بأيديكم يوماً، سقف هذا الكون، ولماذا تنهزمون أمام هزائمكم!؟".

سلطان العشّاق

في مكتبة، ينهي الفيتوري توقيع بعض الأوراق، ثم ينظر إلى رغد ويقول لها:

ـ مسافراً غداً..

رغد: بحزن:

ـ راحلٌ أبداً كالصوفيّةِ والدراويش وأهل الطريق..

ـ لا تنسي يا عزيزتي أنني نشأت في أسرة ارتبطت بالتصوّف فجدّي الوليّ الصالح عبد السَّلام الأسمر الفيتوري هو مؤسّس الطريقة الأسمرية العروسية الشاذليّة.

ـ في جوّ من الإيقاعات والرموز وموسيقى متميّزة عشتَ، فتسلّلتْ هذه الإيقاعات إلى شِعرك أنغاماً.

ـ التجربة الصوفيّة بالنسبة لي جزءٌ من كياني، عانيتُها قبل أن أُولَد، عانيتُها طفلاً وصبيّاً وقبل أن أعرف الشّعر.. بل لعلّني عرفت الشّعر من خلال معرفتي بها. الظاهة الصوفية هي في حقيقتها التفاتة أعمق إلى الداخل، وعودة أشدّ التصاقاً بالجوهر.

تقدّم رغد الكتاب للشاعر وتطلب منه أن يقرأ لها "معزوفة لدرويش متجوّل".. تقول:

ـ سأسجلها بصوتك.

يقرأ:

"في حضرةِ مَنْ أهوى

عبثتْ بي الأشواقْ

حَدَّقْتُ بلا وجهٍ

ورقصتُ بلا ساقْ

وزحمتُ براياتي

وطبولي الآفاقْ

عشقي يفني عشقي

وفنائي استغراقْ

مملوكُكِ.. لكنّي

سلطانُ العشّاقْ!".

ـ في هذا المقطع وصل الدرويش إلى غاية الطريق وصار قاب قوسين أو أدنى من حضرة المحبوب، صار في حالة عِشقٍ وفناء في المحبوب، وغاب عن نفسه فلم يعد يدرك وجوده وبلغ غاية السعادة لأنه أحسّ أنه سلطان العشّاق.

الفيتوري يهزّ رأسه موافقاً ويقول:

ـ كأنّني أردّدُ كلام جدّي الصوفيّ، هذا ليس كلامي، تعرفين لقد كنت أُدَوِّنُ القصائد الصوفية بناءً على طلب والدي شيخ الطريقة في الإسكندرية.

ـ ولكنك أيضاً قرأتَ آثار المتصوّفة المسلمين واستخدمتَ الكثير من رموزهم، مثلاً رمز الجبل في قصيدة "الجبل" وهو المكان المقدّس الذي تجلّى الله لموسى عليه السلام في طور سيناء، ويمثّل الجبل مكان اللقاء بين المبدع وإبداعه، مكان الشعلة المقدسة، مكان السرّ والاتّصال مع منبع الإبداع والخلق.

ـ نعم قرأتهم وتأثّرت بهم، قرأت ابن الفارض والحلّاج وإبراهيم بن أدهم والبسطامي وأبا بكر الشبلي وغيرهم.

ـ ولكنّ التصوّف في قصائدك ليس ذلك التصوّف الجاهل المذهول.

ـ طبعاً لا... إنما هو تصوّف ثوريّ ومثقّف، إنه علاقة جدلية بين مريد جريء الأسئلة وشيخ حاضر الإجابة، كلاهما يحتقر ما في الدنيا من مظاهر خادعة وفاسدة ولكنه مؤمن دائماً بإمكانية بلوغ الأفضل.

ـ وقد تكون لديكَ بعض الأفكار الموروثة من الفكر الصوفي الإسلامي ولكن الملمح الرومنتيكي يبدو واضحاً عندك وأصيلاً بحكم طبيعتك كشاعر مغترب متوحّد حزين وبحكم البيئة التي نشأت فيها.

ـ لقد آمنت دائماً بالفن وتخليد الفنان وتأليه الطبيعة وعالم الغاب والصفاء والنشوة الروحية المنبعثة من التأمّل في الوجود والتطلع إلى الأبدية

على جناحي الفن والطبيعة.

ـ إنها رؤية رومنتيكية واضحة فيها لمحة صوفية ولكنها صوفية فكرية بعيدة عن الصوفية الدينية المتعارف عليها ومختلفة عنها!..

ـ نعم إلَّا أنها تتفق في بعض جوانبها مع القول بوحدة الوجود.

رغد تقرأ مقطعاً من قصيدة (أحلف باسمك أنت):

"أيتها الغابة المستحمّة بالعبقِ الإلـهي

المغطاة بالصيف والأمسيات

التي نسيت عُرْيَها تحت مروحة

الشمس..

عشب الفصول أنا..

أبداً أتمدّد في العشب والماء..

أغرق في شهقة الحلم..

أوغلُ في وجع النهر..

أركضُ في صلوات النواقيس..

أرحل ما زلت منذ افترقنا إليك

وأرحلُ في الحبّ والشّعر..".

ـ إن صوفيّة الشّاعر، أو شاعرية الصوفيّ الذي أتكلّم من خلاله، موقف إنسانيّ إيجابي واعٍ ومدرك، وليس موقف الدرويش المنجذب إلى مجموعة من الأفكار المشوّشة والشعوذات والأحاسيس التجريدية العمياء.

ـ موقفك هذا يبدو واضحاً في قصيدة "يوميات حاجّ إلى بيت الله الحرام" حيث يظهر واضحاً أنّ النزعة الصوفية ليست نزعة فردية هدفها خلاص روحكَ فقط وإنّما خلاص روح الأمة كلّها.

الفيتوري يقرأ:

"يا سيدي

منذ ردمنا البحرَ بالسدود

وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود

متنا..

وداستْ فوقنا ماشيةُ اليهود

❋ ❋ ❋

يا سيّدي..

تعلمُ أنْ كان لنا مجدٌ وضَيّعناه

بنَيْتَهُ أنت، وهدّمناه

واليوم ها نحن!

أجل يا سيدي

نرفلُ في سقطتنا العظيمهْ

كأننا شواهدٌ قديمهْ

تعيشُ عمرها لكي

تؤرّخ الهزيمَهْ

* * *

لا جمرَ في عظامِنا ولا رمادْ

لا ثلجَ لا سوادْ

لا الكفر كلّه ولا العِبادّهْ

الضعفُ والذّلّةُ عادَه

يا سيّدي

علَّمتَنا الحبّ

فعَلِّمْنا تَمَرُّدَ الإرادهْ

* * *

ابكِ لنا

وادعُ لنا

فالعصرُ في داخلنا جدار

إن لم نُهَدِّمْهُ

فلن يغسِلَنا ضوءُ النهار"...

ـ في القصيدة دعوة صادقة لتطهير روح هذه الأمة من الضعف الذي تعيشُه.

المناضلون الشّيشان والمقاومة

تدخل رغد مكتب الفيتوري حاملة بعض الكتب والأوراق، يرحّب بها كعادته قائلاً:

ـ كما أنت مشرقةً وجميلة.

رغد مدّعيةً عدم الرِّضا:

ـ لا تخاطبني كما تخاطب جميلاتك المحيطات بك دائماً.. اترك لهنّ كلمات الغزل الرقيقة هذه.

ـ حسناً أيّتها المفكّرة العظيمه..

يخرج قصاصة جريدة من بين الأوراق المتراكمة.

ـ تفضّلي هذا الخبر الذي يهمك طبعاً.

تأخذ رغد الجريدة وتقرأ بصوتٍ عالٍ:

ـ "المقاتلون الشيشان يؤكّدون وقوفهم وراء حريق برج موسكو وغرق الغواصة الروسيّة".

رائع.. الخبر رائع، سمعته البارحة، إنّه يؤكدّ أن الثائرين الأحرار يرفضون الانصياع والذلّ لأيّ استعمار ومهما كان..

ـ لا بدّ لإرادة الشعب أن تنتصر في أي مكان، ولا بد للشعوب الطعينة

أن تدوس بكبرياء الأصفاد والسجون، وأن تغسل الشمس بالنور دروبها وجبينها.

ـ لهذه المنطقة تاريخ حافل بالمآسي فلقد توسّعت روسيا القيصرية على حساب جيرانها الشراكسة وإمارة القرم فاحتلت السواحل الشرقيى لبحر آزوف في القرن السابع عشر، وبدأت بالتغلغل في القرن الثامن عشر باحتلال جزء من بحر قزوين وبحر آزوف في سهوب ستافروبول والسهول الممتدة حتى يمين نهر الكوبان.. ولكن الشعب الشركسي رفض الخضوع للاحتلال وحَشَدَ في سبيل الدفاع عن أرضه كل قواه الفاعلة واستمرت الحرب أكثر من قرن وربع (1720 ـ 1864م)، وكان وقودها أكثر من ست أجيال من الشركس وبالمقابل قرابة مليوني جندي روسي..

الفيتوري يسأل باهتمام:

ـ وما أسباب تمسّك روسيا بالقفقاس؟.

ـ هناك عوامل سياسية أهمها الإحساس بالدولة العظمى واستعادة هيبتها ومكانتها ونفوذها، وهناك أسباب اقتصادية سببها الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية الثمينة، وكذلك نفط باكو وغروزني ومايكروب وغاز شمال غرب القفقاس.

الفيتوري بإعجاب:

ـ إن هذا الشعب يقاوم المستعمر بشراسة ويدافع عن أرضه ببسالة رائعة..

ـ إن الأمثال الشركسية تعبر أفضل تعبير عن نفسية هذا الشعب الجبلي الذي يرفض الذل والخضوع ويرفض بالتالي الاعتداء على الآخرين.. اسمع ما يقولون:

"إذا لم تضرب من يضربك لن يعف أن لك يداً".

و"من لمس عينك خذ روحه".

ـ يا إلهي.. لك هو عظيم هذا الشعب إنني أطأطئ جبيني إكباراً له وتقديراً لبطولاته. لقد مثلت الحرب الشيشانية ظاهرة رائعة في القرن العشرين، وعبرة لكل الشعوب الصغيرة والتي من حقها أن تمارس حريتها في أرضها، واثبتت أن الشعب إن تماسك فلن تستطيع قوة في الأرض أن تهزمه، فالنصر من الله، وبإرادة الإنسان.

ـ صحيح.. وبالرغم من الأحداث المريعة التي استخدمت فيها روسيا كلّ الأسلحة حيث قصفت المدنيين بالمقاتلات، التي صُنعت لخوض الحروب العالمية، وقامت بالمذابح الجماعية بوحشية بالغة، ما زال العالم واقفاً يتفرّج على ما يجري في الشيشان وما جرى في البوسنة والهرسك وأبخازيا وغيرها..

ـ ورغم بشاعة الحرب، وما أدّت إليه من خرق لحقوق الإنسان ولمعنى الإنسانية فإن أي دولة غربية لم تتخذ أي إجراء حيال هذه الحرب؟!.

ـ نعم، لأن هذه الدول لا تريد إزعاج روسيا من أجل شعب صغي، ولزعمهم أن هذه القضية هي داخلية وأن شيشانيا هي جزء من روسيا.

ـ كما يحصل عادة بالنسبة لبقية القضايا، فما الذي يبرر صمت الدول تجاه المذابح التي تحصل في فلسطين أو الاعتداءات السافرة التي قامت بها إسرائيل ضد لبنان!؟.

ـ للأسف.. كلّ الدول المستضعفة هي أحجار شطرنج تحرّكها أنامل الجبّارين على رقعة اللعب...

لقد قامت أمريكا وروسيا باتفاق منذ نهاية الحرب الباردة وهو يسير بخطين: الأول أن روسيا تملك الحرية المطلقة في التصرّف ضمن دائرتها المباشرة من دون أن تلوّح أميركا بحقوق الإنسان، ومن دون أن تتذكر وجود مجلس الأمن.. في الخط الثاني: تقبل روسيا وأوروبا طوعاً الخروج من الدائرة السوفيتية السابقة: لا دور في تسوية الشرق الأوسط أكثر من قراءة الخطابات.. وبين هذين الخطين لا تملك الدول الأوروبية في تسوية الشرق الأوسط إلّا دور شرطي المرور المكلَّف سلفاً بغض النظر عن كل ما يحدث.

ـ إنه زمن السقوط..

"وقال بيدبا:

ـ سألَتني عن السقوط مرّةً.

فإن تكن لا زلتَ مصغياً إليَّ

أيها الملك

ها أنذا أقول لك

ـ يسقطُ بعضُهم

لأنه يرى ولا يرى

ويسقط البعض..

لأنه يسير القهقهرى

وشرُّ أنواع السقوط مرضا

هو السقوط في الرِّضا".

ـ أظن أن الشيشانيين هناك والفلسطينيين هنا يثبتون اليوم للعالم أنهم أقوى وأكثر وعياً من أن يسقطوا في حالة الرضا والخمول لأنهم يمتلكون قضية عادلة وهي حقهم في أرضهم وحريتهم...

ـ إنك محامية جيدة عن أجدادك الشراكسة...

ـ ليس لأنهم أجدادي، بل لأن قضيتهم قضية عادلة ومحقّة، ولأن الواقعية تفرض استقلال الشيشان وتحرّرهم وانسحاب روسيا من بلادهم، وهذا هو الطريق الصحيح فقط ليوافقوا على إقامة سلم مع روسيا.

ـ لا بدّ لكل شعب ناضل أن ينال حريته يوماً.. اسمعي ما قلته يوماً عندما تحرّرت أفريقيا من نير الاستعمار والظلم:

"حصاد شعب":

”زحفت مواكبُنا.. فقلْ لصحائف المجد استعدّي

هذا الذي غرسَتْه كفُّ الشعب، في اليوم الأشدِّ

هذا حصاد القادرين على الإرادة والتحدي

ولقد قدرنا، رغم بطش الأجنبيِّ المستبدِ

ولقد هدمنا، كلّ ما في الأمسِ من سجن وقيدِ

ولقد هزمنا، كل ما في الأرض، من ضعف وحقدِ

ولقد عقدنا في طريق نضالنا أكاليل ورد

يا شعبنا.. وخطاك إعصار

وصوتك صوت رعدِ

وبيارق الشهداء فوق ثراك من جدّ لجدّ

والشمسُ حانيةٌ عليك، تطلُّ في تيهٍ ووَجْدِ

ترنو إليك.. وأنت ثورة ثائرين لخير قصدِ

لحياة شعب.. وانتفاضة أمة.. وبناء مجد

ولتصبح الحرية الكبرى

طريقك دون حدِّ

يا ملهم الشّعراء، أروع شعرهم يوم التحدّي

ماذا أقدّمه إليك؟

وأنتَ كلّ الشّعر عندي".

رغد:

ـ نعم.. نعم.. لا بدّ لكل أمة أن تنال المجد إن هي تحدّث الظلم والاستعمار، ولا بدّ من يوم تحصد فيه نتيجة عملها وجهادها الطويل...

ويبقى الشّعر هو الذي يؤرّخ هذا النصر العظيم..

ليس طفلاً وحجارة

يرنّ جرس الهاتف، ترفعه رغد متثاقلةً، تسمع صوته قادماً من الطرف الآخر:

ـ سيّدتي الجميلة، عدتِ إذن من دمشق؟.

ـ نعم، عدت منذ ثلاثة أيام.

ـ لماذالم تتّصلي بي إذن؟.

ـ إنني يا عزيزي متسمّرة أمام التلفزيون أتابع أخبار الانتفاضة، إن الأخبار مفجعة، كلّ يوم عشرات القتلى والجرحى على مرأى العالم ولا أحد يتحرّك أو يقول كلمة..

ـ كان لا بدّ أن تستيقظ الانتفاضة من جديد بعد أن أسكتوها في المرة الماضية.. لا تحزني يا عزيزتي.. هؤلاء الصغار هم الذين أقلقوا العالم وحيّرت حجارتهم كلّ أساليب القمع والغدر الصهيونية، وهم الذين وضعوا أعداء الأمّة والوطن أمام حقيقة وجودهم وانتصارهم.

ـ نحن على أبواب الألفية الثالثة، كيف سيقاوم هؤلاء المساكين آلات البطش المتطورة بحجارتهم وصدورهم؟!..

ـ هؤلاء أنفسهم الذين أوقفوا آلات البطش هذه سابقاً عاجزة عن فعل أي شيء.. هؤلاء الصغار هم الذين حاربوا بأجسادهم دبابات الغزاة الغرباء

"ليس طفلاًن ذلك الخارجُ من أزمنةِ الموتى...

إلّا هي الإشارهْ

ليس طفلاً، وحجارهْ

ليس شمساً من نحاسٍ ورمادْ

ليس طوقاً حول أعناقِ الطواويس..

مُحَلَّى بالسّوادْ

إنّه طقسُ حضارهْ

إنه إيقاعُ شعبٍ وبلادْ

إنّه العصرُ يغطّي عُرْيَهُ

في ظلِّ موسيقى الحِدادْ

ليس طفلاً، ذلك الخارجُ

من قُبَّعَةِ الحاخام

من قوسِ الهزائمْ

إنه العدلُ الذي يكبرُ في صمتِ الجرائمْ

إنه التاريخُ مسقوفاً بأزهارِ الجماجمْ

إنهُ روحُ فلسطينَ المُقاومْ

إنه الأرضُ التي لم تخنِ الأرضَ

وخانتها الطرابيشُ.

وخانتها العمائمْ..

إنه الحقّ الذي لم يَخُنِ الحقَّ

وخانته الحكوماتُ

وخانته المحاكمْ".

ـ ليس الخوف على الانتفاضة من أطفالها فهم قد صمموا على خوض المعركة حتى النهاية، ولكن الخوف من الخونة الذين يتوالدون ويتكاثرون في كل زمان ومكان.

الفيتوري متابعاً:

"فانتزعْ نفسَكَ من نفسِك

واسكبْ أيها الزيتُ الفلسطينيُّ أقمارَكَ

واحضنْ ذاتَك الكبرى وقاومْ

وأضِئْ نافذةَ البحرِ، على البحرِ

وقل للموج:

إنّ الموجَ قادمْ

* * *

لستَ طفلاً، أيها القادمُ

في عاصفةِ الثلج..

وأمواج الضبابْ

لستَ طفلاً قطُّ، في هذا العذابْ

صدئتْ نجمةُ هذا الوطن المُحتلِّ

في مَسْرَاكَ، من بابٍ لبابْ

مثلَ شَحَّاذٍ تَقَوَّسْتَ طويلاً

في أقاليمِ الضبابْ

وكزنجيٍّ من الماضي

تسمّرتَ وراء الليل، مثقوبَ الحجابْ

لستَ طفلاً يتجلّى عابثاً

في لعبةِ الكونِ المحطَّمْ

أنتَ في سنبلةِ النار

وفي البرقِ المُلَثَّمْ

كان مقدوراً لأغصانَكَ، مجدُ الأعمده

ولأمطارِكَ سقفُ الأممِ المُتَّحِدَهْ

ولأحجارِك بهوُ الأوجهِ المُرتعده".

ـ أنتَ متفائل جداً رغم عمق المأساة وغموض الواقع الذي نعيشه.

ـ يا عزيزتي، الانتفاضة أشعلت روحاً جديدة، والمقاومة ستفضي يوماً ما إلى ثورة

"لستَ طفلاً..

هكذا تَوالَدُ في العصرِ اليهوديِّ

وتستغرقُ في الحُلمِ أمامَه

عارياً إلَّا من القدسِ..

ومن زيتونةِ الأقصى

وناقوسِ القيامهْ

شَفَقيًّا، وشفيفاً كغمامه

واحتفالياً كأكفانِ شهيدْ

وفدائياً من الجرحِ البعيدْ

ولقد تَصلبُكَ النازيّةُ السوداءُ

في أقبيةِ العصر الجديدْ

وعلى مَنْ غرسوا القضبانَ في عينيه

أن لا يتألَّمْ

وعلى مَنْ شَهِدَ المأساةَ

أن لا يتكلّمْ!"...

ـ على كلّ حال الدول العربية جميعها قد اتّخذت القرار أن تساند وتدعم الفلسطينيين، ولكن بالكلام فقط...

ـ لقد قلت هذا في قصيدة "يأتي العاشقون إليك يا بغداد":

"هذا المساءُ

كأنَّ ثَمَّةَ مَنْ يُرَقّعُ غيمة مثقوبةً

هذا المساء

كأنّ أجنحةً فلسطينيةَ الألوان

تَزْلُقُ في الهواء

كأنَّ طفلاً حاملاً حَجَراً

يُراوِغُ قاتلاً متربّصاً

ويغوصُ في عَيْنَيْه..

يحفرُ في صخورِ الجاهلية جدولاً للضوء..

ثم يغيبُ خلف ظلامِ من قتلوا ابتسامَتَهُ..

ومَنْ قتلوه

كان الطفلُ ذو الكوفيّةِ الحمراء

يركضُ عارياً

إلّا من الحجرِ المخضَّب في يديه

أكاد.. إني لا أُصَدِّقُ..

عارياً إلّامن الكوفيةِ الحمراء..

والحجرِ المُخَضَّبِ في يديهْ

وألفُ نيشانٍ من الذهب المُرَصَّعِ

فوق صدرٍ لم يَخُضْ حرباً

وألفُ إذاعةٍ قصفتْ متاريسَ العدوّ

وألفُ أغنيةٍ مُسلَّحَةٍ من الوزن الثَّقيل

وألفُ طاغيةٍ، يُعَلِّقُ سيفَه قَمراً

على عرشٍ ذليل.

* * *

لمن إذنْ؟

تلك الأساطيل التي يبنونها

في البر، أو في البحرِ، أو في الجو

للنازيّة السوداءِ

أم للطفلِ؟

أم للمشي خلف جنازةِ الوطنِ القتيل؟!".

رغد بأسًى:

ـ الأساطيل يا صديقي تساهم في معركة اغتيال طفولة وشباب هذا الوطن.

ـ قد يخرج النور من وراء هذا الظلام الكئيب الذي نعيشه...

* * *

بعد أيام تتصل رغد بالفيتوري تقول سعيدة:

ـ أسمعتَ الخبر الرائع، لقد اسرَ حزب الله ثلاثة جنود إسرائيليين في منطقة شبعا..

ـ نعم لقد سمعت الخبر، لعلّه هو الأمل أو الضوء الذي ينير عتمة المأساة.

ـ تصوّر، منذ أن بدأت الانتفاضة لم نسمع من العرب إلّا أصوات مستنكرة، وفي كلّ يوم عشرات القتلى، وها هي اليوم إسرائيل تغوص في

الوحل من جديد، فليذوقوا طعم الذلّ والقهر.

ـ إنّ المقاومة في الجنوب اللبناني قد حَطَّمَتْ أسطورة الوهم الإسرائيلي الذي عاش فيه العرب لسنوات طويلة.

رغد:

ـ لا تستطيع قوّة في الأرض أن تقفَ في وجه أبطال نذروا أنفسهم للحرية وقدّموا أغلى ما يملكون فداءً للوطن.

ـ حقًّا، لا بدّ أن نحنيَ الجبين إجلالاً لكلّ هؤلاء الشهداء الذين طهّروا الأرض العربية بدمائهم.

تصمت قليلاً ثم تقول بحزن:

ـ ولكن رغم الفرحة الكبرى التي عاشتها الشعوب العربية جميعها مع لبنان يوم عرس حريته، انظر الآن إلى أبطال المقاومة، أولئك الشباب الذين قضوا أيامهم في السجون الإسرائيلية أو في سجون العملاء، انظر إليهم الآن ماذا يعملون بعد أن صنعوا النصر الكبير، كيف يعيشون، كيف يداوون جراحاتهم الجسدية والنفسية من آثار الاعتقال الكبير؟!...

يوم انسحبت إسرائيل بذلّ من لبنان ظننا أن الوطن العربيّ كلذه سيقدّم نياشين النصر لهؤلاء الأبطال، فإذا بهم قد نُسوا كما يُنسى كلّ ما هو عظيم في هذه البلاد.

دمشقُ أبقى

على شاطئ البحر، بينما هما يتمشيان قول رغد:

ـ سأسافر غداً إلى دمشق.. ألم تقل إننا سنذهب معاً يوماً ما إليها؟.

ـ نعم.. تعرفين كم لي من الأصدقاء في سوريا والأحبّاء.

ـ أحبابكَ كثرٌ في كلّ مكان.

ـ أحبّهم كما يحبونني وربما أكثر.

ـ ودمشق؟.

ـ تريدين أن أؤكّد لك أنّني أحبّها، أحبّها يا عزيزتي، لقد عشت فيها بعدما أُبعدت من بيروت عام 1975.

دمشق يا عزيزتي قلعى النضال والفكر العبي وبوّابة الأمل نحو المستقبل.

ـ أحسّ بفرح عظيم عندما أسمع اسم سوريا يُذكر بين البلدان المناضلة والصامدة في وجه تحدّيات العدوّ.

ـ عندما تُذكر دمشق فأنتِ سوريّة شديدة التعصّب لها، وعندما يذكر لبنان فأنت ابنته البارّة؟

ـ كما أنتَ.. سودانين ليبي، مصري، لبناني، أيّهم أنت؟.

ـ أعتقد أن الإنسان ليس بالضرورة هو ابن المكان الذي يولد فيه، الانتماء ينمو ويكبر ولا علاقة له بالهوية.

ـ على كلّ حال أنا سورية المولد، ولكنني لبنانية النشأة والانتماء، ولعلّ سعادتي كبيرة أن سوريا ولبنان يقفان على خطّ واحد في مواجهة الصراعات القائمة.

ـ هذا صحيح.. بينما الكثير من الدول الأخرى تتبارى لاهثة وراء صلح مزعوم مع إسرائيل.

ـ قصيدة "دمشقُ أبقى" رائعة..

الفيتوري يقرأ:

"دمشق أبقى..

وللباقينَ ما رَغِبوا

فاشْدُدْ يديك عليها إنّها العربُ

واجهرْ بصوتِكَ في بهوِ الجلال

ولا تسكبْ رحيقَكَ إلّا حيث تنتسبُ

لا لستَ وجهاً غريباً ها هنا أبداً

ما بين أهلٍ كيف تغتربُ

ولستَ أوّلَ مَنْ جاء الشّآمَ

وفي عينيه منها إلى أحبابِه عَتَبُ

في البَدْءِ كانت هي الرمزَ العظيمَ

وكان الله خلفَ سقوفِ الغيبِ يحتجب

اثم استدارتْ مرايا الكون

وانزلقتْ على مدارجِه الأقمارُ والشُّهُبُ

وكان ما كان..

والتاريخ مركبةٌ تعلو وتهبطُ

أو تهوي وتضطربُ

وأنتَ مَنْ أنتَ؟

إن لم تستحلْ وهجاً

يضيءُ في عتمةِ الدنيا، ويتلهبُ

* * *

دمشقُ أبقى..

فقلْ للراكعين على أقدامِهم

غاصتِ الأقدامُ والرُّكَبُ

وغُصَّ بالدّمْ مَنْ أعطى العدوَّ يداً

والأرضُ محتلّةٌ، والقدسُ مُغْتَصَبُ

بأيِّ حقٍّ تبارَوا لاهثين

إلى مواقعِ الذّلِّ، واعتزّموا بما ارتكبوا

بأيِّ عينٍ رأوا تاريخَ أمّتهم يُمْحَى..

وجوهرة الأديانِ تُستلبُ

بأيِّ أرجوحةٍ لَذَّ النعاسُ لهم

فالغيمُ سقفُ نجومٍ، والثّرى ذهبُ

كأنما هم دُمًى في كفِّ صانِعِها

تحبو قليلاً، وتكبو، ثم تنقلبُ

قال الذي قال مفتوناً بسقطتِه

وفاتناً، وهمو من حولِه نُصُبُ

مجدُ الحياةِ لإسرائيل

وهي على أسوارِها

وحقوقُ الأرضِ تُكتَسَبُ

فإنْ أردتمْ سلاحاً

فاقبلوه كما شاءت..

وإلَّا فما للهالكينَ أبُ

واحمّرتِ الأعينُ الزَّرقاءُ

واشتعلَ الحاخامُ

والحقدُ في جفنيهِ يصطخبُ

*　*　*

وجرجرتُ أُمّةٌ راياتِ عزّتِها قهراً

وعَشّشَ في أرواحِها التعبُ

وطأطأتْ جبهةٌ

كانت إذا انحسرت يوماً

أضاءَ الدّجى، واسودّتِ السُّحُبُ

وقِيلَلم تبقَ إلّا الكأس

مترعةً من خمرةِ العصرِ

فاشربْ مثلما شربوا

وقلتُ إنّي لَأَستحييكَ يا وطناً

يصحو، وتصحو المآسي فيه والنُّوَبُ

وقلتُ لم ننهرمْ..

لكنهم هزموا شعوبهم

وحلا للخاسرِ اللّعِبُ

وقلتُ لن يحصدوا إلّا الدموع

ولن تنهارَ إلَّا على أربا بِها القُبَبُ

وقلتُ يا شام..

أنتِ الشام

أنتِ هي الأرضُ الحرام

وأنتِ المجدُ والغضبُ

وأنتِ دُرَّةُ عقدِ الشرقِ

ما كُتِبْتَ إلَّا ببعض دمِ من نورِكِ

الكُتُبُ

فأَلهميني كما ألهمتِ مَنْ سبقوا

وعانقوكِ وغابوا فيكِ

واحتجبوا..».

رغد تتمتم:

ـ كادت الدموع أن تنسكب من عينيّ، تراءت صورة دمشق وأصداء خطى صلاح الدين فيها، وموكب المجد والرؤى والرايات التي طالما حلّقت في الأعالي...

* * *

تبقى لنا مصر

رغد تدخل مكتب الفيتوري وتقدّم له مجموعة القصائد التي طبعتها على الكومبيتوتر من ديوانه الأخير، تقول له:

ـ ما زلت منذ بداياتك وحتى اليوم تؤرّخ في شعرك للأحداث القومية والوطنية الكبرى، بصدق وعفوية، بمحبة وتعاطف كليّّ.ز

ـ هاجسي الوحيد هو مستقبل الأمة العربية.. حملت همومهان غنّيت يوماً لأمجادها.. واليوم ما زال الهمّ الأكبر فلسطين المصلوبة، والعرب المنقسمون على ذواتهم

"يستمطرون سحاباً ليس يمطر

مظلوماً.. ويبسطُ كفيه لمن ظلموا"

ـ قصيدة "تبقى لنا مصر" المهداة إلى أحمد شوقي في ذكره الـ 65، تحمل صرخات الألم والتنديد بالتشتّت العربي وخيانة البعض، ودعوة إلى الحاكم، كل حاكم بأن يعدل في الناس لأن هناك عَدْلاً أكبر في السماء.

الفيتوري يقرأ القصيدة:

"يبقى لنا خالداً من شِعركَ.. الذهب الـ

ـمنقوش في شرفات الشمسُ والنغمُ

يبقى لنا نهرك الفضيّ منسكباً

حيث الرعاة الرماديون والعدمُ

يبقى لنا صوتك العالي وقد هرعت

إليك تستبق القاماتُ والقممُ

خمسٌ ستون حلماً ماثلاً وكما

مّت غيومُ الليالي مرّت السُّدُمُ

خمسٌ وستون، والساحاتُ تغرقُ في

سحائب الدم، والأشباحُ ترتطمُ

والعُرْبُ حيث تركت العربَ، رايتهم

ألفٌ، وأمّتهم في أرضها أممُ

سُدًى تدور رحاهم.. أينما ذهبوا

تراكموا.. واستبيحت منهم الحرمُ

مهمّشون، يتامى العصر، ليس لهم

من حفلة النصرِ إلّا العيّ والصممُ

يستمطرون سحاباً ليس يمطرُ

مظلوماً.. ويبسط كفيّه لمن ظلموا

أولاءِ هم سادة الدنيا القديمةِ

والدنيا القديمةُ مهما ازّينت حُلُمُ

أولاءِ هم يا أميرَ الشّعر، فارثِ لمن

نسوك، قبل صياح الديك وانهزموا

بلى نسوا وعيون الحقّ شاهدةٌ

أن الخنوعَ جحيمٌ والطموح دمُ

وأنَّ بعض وصايا الأنبياء لهم

أن لا تغصّوا بماء الذلّ واقتحموا

وأن أعداءَكم أعداءً أُمّتكم

كُثْرٌ.. وأنهم باقون حيث هو

وأن عصراً صليبياً يكاد إذا

تخاطفتكم صقور الغرب ينتقمُ

وأنّ لمن حسبَ الأيامَ لعبتَه

إنّ الإلهَ له في خلقه حَكَمُ

* * *

بلى نسوا يا أمير الشّعر فانكفأوا

بعضاً على بعضهم في الحرب وانقسموا

وخان مَنْ خان منهم وهو مُتَّشِحُ

وعارُ تاريخِه من فوقِه علمُ

وهان منْ هان، والإنسان إن سقطت

أوطانُه سقط الإنسانُ والقيمُ

وباعَ مَنْ باع منهم أرضه ثمناً

لعرشِه، فاعتلاه وهو مهنزمُ

❋ ❋ ❋

بلى، ولي من همومِ العصر أعمقها

جرحاً، ولي من دموع الناس ما همو

ولي إليكَ التفاتاتُ الحنينِ وبعض

من مثولي لديكِ العشقُ والألمُ

وأصدقُ الشّعر أقساه، وأنت به

أدرى، وكم من محبٍّ فيك مُتَّهَمُ"

تمتمت رغد في أعماقها: يا لك من رائع في قصيدتك العمودية هذه، إنها مناسِبة للمقام شكلاً وموضوعاً، نابضة بتلك المشاعر الحارة، النابعة من

الامتلاء بالموقف، والقدرة على أن تأخذ قبساً من الأمس يتفجّر ـ في يومنا الحاضر ـ كما تتفجر الشرارة.

راحت تستعيد الأبيات الثلاثة الأخيرة وكأنها تريد أن تغرسها في ضلوعها.

ويسألونكَ عن لبنان

رغد تقود سيارتها في شوارع بيروت، يصرخ بعصبية:

ـ انتبهي، خفّفي السرعة.

رغد مبتسمة:

ـ أنا لست مسرعة أبداً..

الفيتوري:

ـ تقودين السيارة بسرعة جنونية، أنتم مجانين بالقيادة، كلُّكم.. أقصد اللبنانيين تقودون بدون أية ضوابط.

تفكّر قليلاً ثم تقول:

ـ ربما.. هذا بسبب ما عشناه من حرب طويلة، انظر..

تشير إلى إحدى البنايات التي ثقبَها رصاص القنّاصة من الجهتين فبدت أشبه بلوحة تجريدية تؤكّد على تمزّق صاحبها.. تعلّق:

ـ هذه هنا أن نسرع كالصاروخ حتى لا يصيبنا رصاص قنّاص أو قذيفة من أحدهم خطر بباله أن يجرّب نوعاً جديداً قد وُهِبَ له من أحد الأطراف المشجِّعةعلى الحرب.

توقف السيارة أمام أحد المحلات يقول ضاحكاً:

ـ تقودين السيارة بسرعة جنونية، وها أنت ذي توقفينها كأحد فرسان العصور الوسطى!!.

ـ هيا بنا لنجلس في هذا المكان الهادئ ولنقرأ بعض الشّعر.

ـ مسكونةٌ أنتِ بالشّعر!.

ـ مسكونةُ بالشّعر والشّعراء..

يجلسان في ركن هادئ من المقهى، يأخذ الكتاب منها، تقول له وهي تجهّز المسجّل:

قصيدة "الزائر والأسئلة"..

الفيتوري يقرأ:

"أبطأتَ وهي وراء الباب تنتظرُ

هل جئتَ تُحيـي الهوى أم جئتَ تعتذرُ

تكاثرتْ أوجهُ العشّاق اختلطت

عليك أصواتُ مَنْ غابوا ومَنْ حضروا

ومَنْ قضوا في منافيهم ومَنْ شربوا

خمرَ النخيلِ ومَنْ في صحوهم سكروا

ومَنْ إذا ذكروا لبنانَ أغرقَهم

فيِ حبِّ لبنانَ أنَّ الحبَّ ينتصرُ

ومن هم الآن في النسيان حيث نأت

أيّامهم ونأوا عنه فما قدروا

أبطأتَ واختطفتكَ الريح، والزمن الـ

مخبوء تحت جناح الريح، والسفرُ

❋ ❋ ❋

والآن بعد انتصاف الشمس فيك وقد

سالت على الأفق الأشباحُ والصورُ

وقد تضرّجت الألوان وانهتكت

تلك المسوخ الخرافيات والأُطُرُ

الآن هل لم تزل نار الطقوس كما

كانت وهل ظلّ في تحليقه الشجرُ

والطيرُ هل هي ذات الطير، تحفر

مسراها على الشفقِ الساري وتنحفرُ

والحبُّ هل هو كأسُ الشّعر نكسرُ

في رحيقه بعض ما فينا وننكسرُ

والناسُ هل أبصرتْ عيناك غير

أسًى يمشي على قديمه ثم ينهمرُ

وتسألُ العربَ الأقحاحَ عن وطنٍ

فتضمحلّ معانيهم وإن كثروا

وتلمسُ الموت في أرواحِهم فإذا

مَسَسْتَ أجسادهم مستنكراً نفروا

وتسألُ العصرَ هل كانوا هل غرقت

وجوههم في بحار الرمل واحتضروا

وأيُّهم خان رايات النضال ومن

هذا الذي حاصر الأبطال فانحصروا

وتسألُ القادةَ الفانين كيف نسوا

والضعف ينخرُ فيهم أنّهم بشرُ

وأنَّ مقبرةَ الطغيان موحشةٌ

من فوقها حجرٌ، من تحتها حجرُ

ويسألونك عن لبنانَ، يسألُكَ

الفجرُ السماويُّ والأصدافُ والدررُ

وجوقة من ملوك الشّعر ترسم في

بلّورِ بيروت رؤياها وتبتكرُ

وفوضويون من أقصى الزمان إلى

أقصى الزمان فلا ناموا ولا سهروا

وعاشقون إذا طاف الجمالُ بهم

تناسخوا فيه مبهورين وانسحروا

وحالمون كأن لم يولدوا أبداً

ولم يمرّ بهم رعد ولا مطرُ

فآمنوا بالجمالِ المحضِ، وانفجرتْ

أشلاؤهم في رماد الكون وانفجروا

* * *

ويسألونك عن لبنان كيف صحا

الفينيقُ والنار في التابوت تَستعرُ

كأنهم صادروا حقّ الحياة فلا

حياة تنبض إلّا حيثما أمروا

كأنما استصغروا لبنان فاحتسبوا

ما تبصرُ العين، لا ما يدرك البصرُ

كأنهم جهلوا أنَّ الأُلى حملوا

سرَّ الحضارة يوماً من هنا عبروا

وزهرة الماء فاضت من هنا، وهنا

استوى على عرشِه الإنسانُ والقدرُ

❊ ❊ ❊

ويسألونك قل للسائلين بلى

لم يحصدوا القمحَ إلّا أنّهم بذروا

توسّدوا نجمة أو قاعَ هاويةٍ

لكنهم في فضاءات الغد انتشروا

غاموا قليلاً فغامت بين أعينِهم

دنيا، وأظلمت الحيطان والسترُ

ويخرجون من الأمس الحزين كما

الأشواق تنبتُ، والأحلام تزدهرُ

ويكتبون وهم موتى صحائف من

داسوا على حُرُماتِ الشعب واحتقروا

لبنانُ والشّعر موسيقى الإله، وبعض

الشّعر من كرمةٍ في الغيب يعتصرُ

لو كان لي لَغَفَرتُ الإثمَ معتذراً

عمَّن أساؤوا ومَنْ هانوا ومن غدروا

ولانكفأتُ على ذاتي كما انكفأوا

ولانكسرتُ على ضعفي كما انكسروا

لكنَّ تلك العذابات التي ارتسمت

على وجوه الضحايا.. كيف تغتفرُ؟!"

كانت آثار الدمار تلوح على الجدران، لكن طفلة ممتلئة حيوية وجمالاً، ظهرت فجأة أمامهما، ابتسمت لرغد وكأنها شعرت شعوراً خفيًّا بما في روحها من انقباض، لوّحت بيدها في جمال وفتون وتطايرت خصلاتها حول وجهها فعادت البهجة تشرق في صدر رغد من جديد.

نيويورك.. غابة الموت

بينما يتابعان الأخبار، يقلّب الشّاعر المحطّات بعصبيّة ويتوقف عند خبر الفيتو الأميركي على قضية تخصّ الفلسطينيين، فيحملهم المسؤولية عما يصيب الشعب الفلسطيني من ظلم.

تقول رغد:

ـ تتكلّم بحدة عن نيويورك وتحملها المسؤولية عن أية فاجعة وعن كل ما هو مؤلم أياً كان، وكل ما هو فظّ كيفما كان.

الفيتوري:

"نيويورك.. ملء عروق كآبه

وعيناي فوق ثراكِ سحابه

ولستِ بلادي

ولا قبلك المتحجر قلبي

ولا أنت في وهج الشّعر دربي

فأفريقيا موطني والزنوج المساكين شعبي

الزنوج المساكين شعبي

الزنوج الذين أقاموا هياكلهم أمسِ جسرا

تمرّ عليه إليكِ الحضاره

والذين يضيعون في طرقاتك رعباً وقهرا

وتضحك أفواههم في مراره

والذين لدى كلّ ضربة معل

وفي كلّ رعشة منجل

وملء مناجمك المعتمات

وملء شوارعك المتخمات".

يهزّ رأسه ويقول بأسى:

ـ أليس الزنوج هم الذين أقاموا من هياكلهم جسراً تمرّ عليه الحضارة إلى هذه البلاد المرعبة؟!...

"وملء ترابك.. ملء قبابك

ملء كنائسك العالياتْ

سينسون أنك سوط، وأنك قاتلْ

وأنك حسناء مغلولة بالسلاسلْ

ولكنهم يا نيويورك مهما نسوك

ومهما تناءوا، وراحوا يشيحون عنك

ستركض أرواحهم من بعيد إليك

لتدفن أوجهها في يديك

وتحنو عليك

وتجهش مخفوقة بالبكاء

لأنك أمّ، وإن كنت قاتلة الأنبياء..

نيويورك يا غابة الموت.. ملعونة كيف كنت

فهذا الذي لطّخَتْهُ يداك، جبينكِ أنتِ".

ـ أنت لا ترى في نيويورك سوى سلالة عاقة، إنها أم تقتل أنبياءها، وأيديها ملطّخة لأنها مؤذية لا تلطّخ إلّا جبينها، تصمت قليلاً ثم تتابع:

ـ نحن تربّينا على كره أمريكا لأنها تساند إسرائيل وتقف دائماً ضدّ العرب، ولكن كلّ منا في الحقيقة يتمنّى أن تسنح له الفرصة ليسافر إلى أمريكا ويعمل هناك ويؤمّن مستقبله.. ألا ترى أن الوضع في بلادنا أسوأ بكثير من أمريكا وأننا نبحث في المجهول عن بلاد تتحمّل آمالنا وتعطينا بعض الأمان بالمستقبل...

ـ لا شكّ أنها بلاد متطوّرة ومتقدّمة، وتؤمّن الحياة الجيدة لمواطنيها، وفي

الحقيقة أن موقفنا الرافض لها هو بسبب ما تربينا عليه نتيجة لسلبيتها في التعامل مع قضايانا العربية والأفريقية..

ـ سلبيتها هذه ناتجة عن ضعفنا، لأن باستطاعة الدول العربية وهي أغنى الدول ولأمريكا معها مصالح كبيرة أن تضغط على أمريكا وتجعلها تقف الموقف المناسب من القضية العربية والقضية الفلسطينية على وجه الخصوص.

ـ لا تنسي يا عزيزتي أن هذه القصيدة قديمة جداً، ولو أتيح لي أن أكتب اليوم في هذا الموضوع لتغيّر أسلوب معالجته ولكنت كتبت بشكل موضوعيّ ومنطقي وليس كردّ فعل عاطفي وثائر..

الأطفال أحبابُ اللّه

في المقهى المطلّ على البحر رغد تقرأ للفيتوري قصة للأطفال كتبتها وسوف ترسلها إلى إحدى مجلات الأطفال... يستمع بهدوء، ويعلّق في بعض الأحيان على جملٍ بالإعجاب أو يشير إليها أن تغيّر جملة ما..ز

في نهاية القصة بعض أبيات من الشّعر كأغنية، تقرؤها رغد ثم تقول له قبل أن يعلّق:

ـ طبعاً أن أحبّ الشّعر ولكنني لا أتقن كتابة حتى بيت واحد..

يقول مبتسماً وهو يتناول الورقة منها:

ـ حسناً يا عزيزتي ليس على جميع الناس أن يكونوا شعراء، هل تريدين أن تجمعي الحسنات كلها، الأنوثة والجمال وكتابة القصة وأيضاً الشّعر، ماذا تتركين لنا إذن..

رغد متمنيَّةً:

ـ ليتني أملك موهبة الشّعر ولا أريد غيرها.. ليس أجمل من أن يكون الإنسان شاعراً، الشّاعر هو الذي يخلّد الزمن.. هو الذي يرفع ملوكاً ويخلّدهم أو ينزلهم إلى الدركات السفلى..

"وبعضهم أنت تدري أن شعرك لو

لم يلق ضوءاً على أيامهم عبروا"

يقرأ الفيتوري الأبيات المكتوبة ثم يبدأ بالكتابة على طرف الورقة بينما ينقر بأصابعه على الطاولة وكأنه يلحّن الأغنية، ينهي الكتابة ثم يبدأ بالقراءة:

"كنّ قنوعاً يا صديقي

كي أسمّيك صديقي

ولكي تغدو رفيقي

كن جميلاً يا رفيقي

القناعهْ خيرُ كنزٍ

وهي كنزٌ ليس يفنى

فأضئ كالشمسِ فينا

إنما الإنسانُ معنى"..

رغد بسعادة:

ـ إنها رائعة.. أظنّ أن أيّ طفل يستطيع أن يحفظها ويغنّيها...

ـ الكتابة للأطفال صعبة جداً، فعلى الكاتب أو الشّاعر أن ينزل إلى مستوى عقل الطفل ويشعر بما يريده..

الفيتوري بحنان:

ـ إنها تكْبُر، ذكية وجميلة.. إنها عصبية، تتصرّف مثلي، تشبهني إلى حدّ كبير..

ـ تحبّ الأطفال؟..

ـ قبلاً كنت أخاف منهم، أما الآن وبعد ولادى ابنتي الصغيرة أصبحت أكثر قرباً منهم، جميل أن نرى أطفالنا يكبرون أمام أعيننا..

ـ وأولادك البقية؟..

ـ بحكم ظروفي وتنقلاتي الكثيرة لم أعرفهم عندما كانوا صغاراً، كبروا فجأة، أشعر الآن أنهم أصدقائي وليسوا أولادي، أنا أراهم عندما أسافر إليهم وبيننا ودّ ومحبّة؛ دائماً أشعر أنهم أصدقائي..

ـ على كلّ حال أظن أن وجود الصغيرة اليوم يعطيك تجربة جديدة، وأظن أنّها تحبّك جداً..

يهز رأسه ويقول مبتسماً:

ـ نعم تحبُّني، إنها تحفظ رقم هاتفي وتتّصل بي أينما أكون وخصوصاً لتشكو لي غذا ضايقها أحد...

ـ تعلم.. لقد أحبك أخي الصغير وهو في الخامسة من عمره منذ أن رآك، وهو الآن يتحدّث عنك وكأنك صديق قديم له وكلما أتى أحدٌ لزيارتنا يخرج كتبك ويقول: هذا هو صديقي...

ـ ربما لأنني يوم رأيته كنت أنا في مرحلة من البساطة والانفتاح فاستطعت أن أجذبه إليَّ... ولا تنسي أن هذا الطفل يعيش في بيت يحبّ الشّعر والشّعراء فهو لا بد أن يشعر أنني صديقه أو واحد من عائلة الشّعراء الذين يرى كتبهم على رفوف المكتبة..

ـ الأطفال أحباب الله، أظن أن الاقتراب منهم ومحاولة فهمهم يعطينا الكثير من السعادة والأمل.

ـ حسناً يا عزيزتي.. أنا مستعدّ أن أكتب لك أغنية لكل قصة تكتبينها للأطفالن فإن هذا يسعدني.

ـ هذا رائع... إذن سأبدأ منذ اليوم بكتابة قصة جديدة...

الطالع من أساطير أفريقيا

اتصلت رغد بالفيتوري الذي تغيّر موقعه الديبلوماسي حديثاً إلى المغرب، قال لها:

ـ لا بدّ أنّك قرأت صحف اليوم..

رغد مبتسمةً:

ـ قرأت جريدة الشرق الأوسط، وشاهدتُ صورتك تهمّ بتقبيل يد الرئيس سليم الحصّ..

الفيتوري ضاحكاً:

ـ أقبّلُ يداً نظيفةً يا عزيزتي.

ـ لا ألومك، إن مَنْ يعرف محمَّد الفيتوري برقة قلبه وإجلاله لكل الرجال الكبار لا ينكر تصرفاً كهذا..

ـ أحسست برقة غريبة ساعة دخلت المعرض وهو يوقّع كتابه الأخير، وقف مرحّباً بي، فما شعرت إلّا وأنا أهمّ بتقبيل يده، لكنه سحبها بشدّة.

ـ فأصرّيتَ أنتَ أيضاً بشدّة...

ـ أنتِ تعرفين ما يعنيه شخص سليم الحصّ بالنسبة لي، ولكنّ القضية أثارت جدلاً كما يبدو في الأوساط الأدبية اللبنانية!.

ـ أنت تعلم أن كلّ شيء ومهما كان صغيراً أو خاصًّا يثير جدلاً في بيروت، على كل حال، الصورة معبّرة جداً وفيها الكثير من الخشوع...

الفيتوري ضاحكاً:

ـ إذن ضمّيها إلى ملفّك الخاص.. إلى اللقاء يا عزيزتي...

تغلق رغد السماعة وتعود بذاكرتها إلى أيام سابقة.. تتذكر كيف كانا يتمشيان في شارع الحمرا أو على الروشة، وكيف كان الفيتوري عندما يرى سودانياً حتى ولو كان لا يعرفه يتقدّم منه ويأخذه بالأحضان ويسارع إلى إخراج بطاقة يقدّمها له قائلاً:

ـ أنا يا أخي مستشار سياسي في السفارة الليبية، تعال لعندي غن احتجت شيئاً، وإن لم تحتج.

تكرّر تصرّفه هذا عدّة مرّات، وكأنّ الفيتوري يصرّ على حمل هموم كلّ مَنْ هو أفريقيّ في أي مكان من العالم..

ليست علاقته بالسودانيين هي التي تلفت النظر، بل إن الصداقة عنده علاقة مميّزة لا يضاهيها شيء آخر.. رغد تذكر يوم قرا لها قصيدة "العودة من المنفى" التي أهداها إلى روح شهيد الغربة السوداني بابكر كرّار، كيف غصّن بالدموع ولم يستطع إكمال القراءة..

قالت له مرّة مرّة وقد أخرجت ورقة مكتوبة:

ـ اسمع ما قاله الفنان الكبير منصور الرحباني عنك..

"الفيتوري الطالع من أساطير أفريقيا وغابات استوائية، الفيتوري الذي

تربّى على هدير أنهار أكبر من الإدراك، وبمدن مقهورة ومشتاقة للحرية، ومحمَّد مجنون بالحرية، طول عمره يلاحقها مثل الصبيّ الذي يلاحق فراشة، تحطّ على زهرة فيلحقها يريد أن يمسكها فتطير، ثم يلاحقها فتطير.. هكذا حتى يروح الموسم ويروح الصبي.. الفيتوري لا يريد أن يعرف أن الحرية قبض الريح... الفيتوري يقعد مع أصحابه.. يضحك، يتكلّمون سياسة واجتماع، وهو في الواق منفصل ومستوحش، عوالمه الداخلية لا شيء فيها إِلَّا الحزن والشّعر، الشّعر القاتل والمحزن".

يهزّ الفيتوري رأسه بإعجاب ويقول:

ـ لأنّ منصور فنان فهو يعرف طبيعة الفنان جيداً وانفكائه على عوالمه الداخلية..

ـ جمهورك كبير جداً من الفنّانين المميزين، كم كانت كلمة الشّاعر الكبير سعيد عقل في مهرجان الأرز الشّعري (الأوديسية) رائعة وخصوصاً عندما قال: "يجب أن يكون الفيتوري كشاعر، سفي النوايا الحسنة إلى جميع الدول العربية".

ـ قد يعود للشعراء دورهم الرياديّ يوماً ما.

ـ إن وضعنا العربي فعلاً بحاجة إلى قلوب حساسة تقرّب المسافات بين أبنائها وتأخذ بيدهم إلى الطريق الصحيح.

ابحثي عنه

ما زالت رغد في غرفتها مسترخيةً على سريرها، وكتب الفيتوري تحيط بها، ومجموعة أقلام وأوراق تنتظر استعداداً للكتابة، وعلى طاولة أخرى بعض كتب عن عنترة، تنظر رغد إلى صورة عنترة المعلّقة على الحائط وتقول له:

ـ آسفة يا عزيزي لقد تأخّرت عليك...

يجيبها:

ـ تأخّرتِ كثيراً، منذ أشهر وأنا ما زلت أنتظر والكتب التي تكلّمت عني كثيرة وشعري كلّه بين يديك... ماذا تنتظرين؟

تنظر إليه بأسف:

ـ حقًّا أنا آسفة، لقد وقعت يدي بالصدفة على قصيدة جديدة للشاعر محمد الفيتوري فوجدتني أغرق في شعره فهرب الوقت مني... إنه شاعر عظيم.. صرتُ أعرفه تماماً.. قرأتُ كلّ ما كُتِبَ عنه، أشعاره كلّها.. إنها رائعة.. رائعة.

ينظر عنترة إليها بدهشة:

ـ تتكلمين عنه وكأنك لا تعرفينه حقيقة!

ـ طبعاً لا أعرفه.. أين سألتقي به ومتى؟!.

يهزّ عنترة رأسه باسف ويقول:

ـ أنتِ تعيشين في زمن شاعر كبير، بل ربما هو أكبر شاعر في الوطن العربي اليوم ولا تجدين طريقة لتتعرفي إليه..

هل ستكتبين عنه من خلال قراءاتك لشعره أو لما كتب عنه، أو من خلال أحلامك فقط!!.

ـ صرت أعرفه جيداً وأحبّه، إن كلمة حبّ لا تعبّر عمّا أشعر به حقًّا تجاه هذا الشّاعر الكبير!

ـ هذا لا يكفي يا عزيزتي.. اخرجي قليلاً من أحلامك...

اتركي كتبك وأوراقك جانباً..

ابحثي عنه...

غريد الشيخ

بيروت 2001 /4/ 13

المصادر والمراجع

1 ـ الأعمال الشّعرية للشاعر:

ـ المجلد الأول: أغاني أفريقيا، عاشق من أفريقيا، اذكريني يا أفريقيا، سقوط دبشليم.

ـ المجلد الثاني: البطل والثورة والمشنقة، ابتسمي حتى تمرّ الخيل، أقوال شاهد إثبات، معزوفة لدرويش متجوّل.

ـ المجلد الثالث: شرق الشمس غرب القمر، يأتي العاشقون إليك، فرس الليل فرس النهار، أغصان الليل عليك.

2 ـ المسرحيات:

ـ يوسف بن تاشفين.

ـ الشّاعر واللعبة.

3 ـ أبعد من المنبر (ص187)، د. غالب غانم، منشورات دار النضال للطباعة والنشر، بيروت 1998.

4 ـ الالتزام في الشّعر العربي، د. أحمد أبو حاقة، دار العلم للملايين، ط1 1979.

5 ـ سلسلة شاعر ومختارات (محمد الفيتوري)، د. حامد طاهر، مكتبة

الآداب، القاهرة.

6ـ الشّعر والتصوف (الفصل السادس: الدرويش المتجوّل)، د. إبراهيم محمد منصور، القاهرة.

7 ـ الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه، إيمان بقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت 1994.

8 ـ الفيتوري مغنّي أفريقيا الحزين، علي محمد التومي، دار السيف للنشر والتوزيع، 2000.

9 ـ محمد الفيتوري شاعر الحسّ والوطنية والحبّ، د. منيف موسى، دار الفكر العربي، بيروت 2001.

10 ـ وقفة مع الشّعر والشّعراء ص48، جليلة رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987.

الاسم: غريد الشّيخ محمّد، لبنانية.
ماجستير في اللغة العربية وآدابها
اختصاصية في تحقيق المخطوطات
عضو في اتّحاد الكتّاب اللبنانيين.
صاحبة مؤسّسة النُّخبة للتّأليف والتّرجمة والنَّشر، بيروت.

وهي أول امرأة تؤلف معجمًا لغويًّا، هو: المعجم في اللغة والنحو والصرف والمصطلحات العلميّة والفلسفيّة والقانونيّة والحديثة، وهو في ستة مجلدات، حوالي 4600 صفحة ويحتوي 71100 كلمة.

الأعمال الأدبية:

1 – تحقيق مخطوط اعتلال القلوب للخرائطي (ت 327)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000

2 – معجم أشعار العشق في كتب التّراث العربي، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2007.

3 – معجم الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، مؤسَّسة النّخبة للتّأليف والتّرجمة والنشر، بيروت 2007.

4 – معجم المترادفات، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

5 – معجم الإعراب للطلاب، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

6 – معجم الحروف والظّروف، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

7 – معجم الأسماء والضّمائر، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

8 – معجم الأفعال وتصريف الأفعال، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

9 – معجم الجموع والمُثَنَّى، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

10 – علم البيان، دار الراتب الجامعية، بيروت2006.

11 – المعاني والبديع، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2006.

12 – المتقن: جامع لدروس اللغة العربية، نحوها وصرفها، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

13 – المتقن في البلاغة والعروض، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2005.

14 – المتقن في تبسيط اللغة العربية لطلاّب المرحلة الابتدائية، دار الراتب الجامعية، بيروت2006.
15 – المتقن العملي في تبسيط الإملاء العربي لطلاّب المرحلة الابتدائية، دار الراتب الجامعية، بيروت،2006.
16 – المتقن العملي في تبسيط القواعد لطلاب المرحلة الابتدائية، دار الراتب الجامعية، بيروت،2006.
17 – المتقن العملي في الاستظهار، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2006.
18 – سلسلة أيام معهم:
- جرير، النُّخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2009.
- نزار قباني، النُّخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2009.
- محمد الفيتوري، النُّخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2010.
- عبد العزيز خوجة، النُّخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2010.
- هدى ميقاتي، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2005.

19 – فدوى طوقان، دراسة أدبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
20 – مي زيادة، أديبة الشَّوق والحنين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
21 – قاسم أمين، بين الأدب والقضية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
22 – موسوعة الحبّ والجمال والغزل، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1999.
23 – تقنيات التعبير في شعر عبد العزيز خوجة، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2004.
24 – شعر عبد الله باشراحيل، الدّلالات الفنّيّة والإنسانيّة، دار قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت 2003.
25 – مجموعة قصص للأطفال عن الحواس الخمس، دار عون، بيروت.
26 – كيف نحكي حكاية للأطفال، قناديل للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2002.
27 – التّربية والتّعليم من خلال اللَّعِب، دار الهادي، بيروت، 2005.
28 – يَوميَّات حمّور، قصّة للأطفال، مؤسَّسة النُّخبة.

29 – أحلى ما قيل في الجمال، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005.
30 – أحلى ما قيل في الحكمة، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005
31 – تحقيق كتاب الإمتاع والمُؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2005.
32 – شرح ديوان جرير، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 1998.
33 – شرح ديوان أبي القاسم الشّابي، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت،1999.
34 – شرح ديوان حافظ ابراهيم، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 2001.
35 – شرح ديوان امرئ القيس، مؤسسة النّور للمطبوعات، بيروت، 2000.